مقالات في الأدب والحياة

الجزء الثالث

مجموعة تكوين المتحدة
للطباعة والنشر و التوزيع

جدة - حي مشرفة - شارع التضامن العربي
info@tkween.net.sa
tkween.net.sa
00966557772038

مقالات في الأدب والحياة

الجزء الثالث

الأستاذ

طارق يسن الطاهر

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ ٢٠٢٢م

الإهداء

إلى بنتَيّ ياسمين ومروة، وابنَيَّ يسن ومحمود

أنتم أعين في رأسي، ودم يجري في شراييني، وهواء يملأ رئتيّ ؛ ليمنحني الحياة.

أدعو الله أن يهديكم فيمن هدى، ويتولاكم فيمن تولى، ويعافيكم فيمن عافى.

أهديكم هذا الكتاب ؛ لعله يبقى مع كتبي الأخرى رصيدا معرفيا تتزودون به، وتفخرون به.

والدكم

مقدمة المؤلف

هذا الجزء الثالث من سلسلة (مقالات في الأدب والحياة)، صدر من قبل كتابان يجمعان مقالاتي التي كتبتها سابقًا، ونشرت في الصحف الورقية والإلكترونية، وهنا أجمع مجموعة ثالثة من المقالات التي كتبتها لاحقًا عقب صدور الجزأين الأول والثاني، فقد تناولت المقالات موضوعات عن الأدب والحياة بتفاصيلها المتشعبة.

المؤلف:

طارق يسن الطاهر.

تقديم

يشرفني كثيراً ويسعدني أكثر أن تكتب حروفي المتواضعة مقدمة هذا الكتاب القيم لمؤلفه: الأخ الأستاذ طارق يسن الطاهر... الذي يحمل عنواناً جذاباً... هو (مقالات في الأدب والحياة).

ومما سهّل مهمتي رغم صعوبتها الكبيرة اطلاعي على معظم هذه المقالات إن لم تكن كلها... والتي كانت تصلني بصفة راتبة وبطريقة دورية...

أنتظرها بشوق كبير وحماس دافق ورغبة قوية... كنت أجد فيها ما أرجوه من معلومات ثرية وقيمة سواء في الأدب أو أي مجال حياتي آخر.

وهي عبارة عن سلسلة مقالات محكمة وقوية ومشوقة... صيغت بلغة رفيعة وأسلوب بديع وخيال خصب مترع بالجمال والتميز.

وكم كانت سعادتي غامرة وامتناني كبيراً عندما تنامى لعلمي أن الأخ طارق يسن يريد أن يجمع شتات هذه المقالات في كتاب، وإن شئت الدقة «في سِفْرٍ فخيم» سيكون بكل تأكيد

موسوعة معرفية ومرجعية علمية، تسهم في زيادة الرصيد المعرفي والمد الثقافي للقارئ الكريم.

تتناول هذه المقالات الشيقة الجانب الأدبي بمعناه الكبير، وبكل تفاصيله العميقة شعراً ونثراً وروايةً... تجلّت فيها إمكانات الكاتب الكبيرة وقدراته الهائلة من خلال السرد الماتع والنثر الرائع والفكر الساطع نقداً وتحليلاً ودراسة لدرجة تفوق الوصف والخيال.

وعلى ذات الاستواء يتجسد ذات الألق ونفس البهاء عندما يتناول الكاتب الكبير المجال الحياتي بكل تصنيفاته الدينية و السياسية والاقتصادية والاجتماعية... يستلهم منها المرء عظيم الدروس وعميق العبر.

هذه المقالات في تقديري قيمة المضمون.. عظيمة المحتوى.. عميقة الفكرة.. غزيرة المعلومات، وكبيرة الفائدة، وكيف لا تكون كذلك وكاتبها فارس كلمة وشاعر عظيم وناقد حاذق وقاص محترف، فعندما يمتشق يراعه السيال، فإن المحصلة بكل تأكيد سيل من الإبداع، وشلالات من الإمتاع، وطوفان من الدهشة.

ختاماً.. أقول: بشرى للقارئ الكريم بهذه الكتاب التحفة الذي يلامس الوجدان بمحتواه العميق... ويعبر عن الواقع المجتمعي والراهن الحياتي بقراءة صحيحة وتحليل عميق

وتمحيص دقيق وحيثيات متينة ومترابطة، تعكس واقع الحال، وتضع له حلولاً ناجعة.

ختام الختام.. الشكر الجزيل والعرفان الوافر والاحترام الكبير للأخ الحبيب والصديق الوفي:

طارق يسن الطاهر، وهو يطوق عنقي بهذا الشرف الباذخ، ويحيطني بهذه الثقة العالية... فله مني كل الود والتقدير. وأقول له: «أنت كاتب فذ وفخر للسودان؛ الوطن، الأرض، التاريخ، والحضارة».

مصطفى محمد أكد

الأبيض

١١ يونيو ٢٠٢١م.

***

العيون في اللغة والأدب وأنواعها وتأثيرها

العين في اللغة تطلق على عدة معان، وهذا ما يسمى في علم اللغة بالمشترك اللفظي، فهي عضو البصر المعروف، والجاسوس، وينبوع الماء، وكبير القوم وشريفهم، وذات الشيء ونفسه، والنفيس من كل شيء، وغيرها من المعاني، حسب المعجم الوسيط.

➢ وتجمع عين على: عيون وأعين، ومن العجيب والمدهش في القرآن أنه قصرَ جمع «عين» على «أعين» حين يقصد العين عضو البصر «فإنك بأعيننا» الطور ٤٨ «...سحروا أعين الناس..» الأعراف ١١٦، «أم لهم أعين يبصرون بها» الأعراف ١٩٥، وغيرها من الآيات.

➢ و جمع «عين» على «عيون» حال الحديث عن ينبوع الماء: «وفجرنا الأرض عيوناً» القمر ١٢، «وفجرنا فيها من العيون» يس ٣٤.

➢ نالت العين حظاً وافراً من التناول في الشعر العربي، قديمه وحديثه، وكانت أكثر أعضاء جسم الإنسان حظاً في تناول

الشعراء.

➢ تتمتع العين بمقدرة فائقة على ترجمة مشاعر صاحبها من فرح وحزن ومرض وألم وخوف وغير ذلك.

تعددت الأسماء لأنواع العين، فمنها:

- النجلاء: بمعنى العين الواسعة.
- الحوراء: وهي العين التي اشتدّ بياضُ بياضها، وسوادُ سوادها، واستدارت حدقتُها، ورقَّت جفونُها.
- الشهلاء: وهي الَّتي في عَيْنها شُهْلة. وهي العين التي يمتزج سوادها بحمرة.
- الدعجاء: وهي العين شديدة السواد، وشديدة البياض مع اتساع في المقلة.
- ومن ذلك الحور العِين: عِين جمع عَيناء، وهي من اتسعت عينها وحسنت.

تتكون العين فيزيائياً من عدد من الأعضاء منها: الملتحمة، القرنية، القزحية، البؤبؤ...

ولكنها عند الشعراء كلٌّ متكامل، لا يفرّقون بين جزء من أجزائها وآخر، يُعجَبون بها كتلة واحدة، ويصفونها جسماً واحداً.

➢وقد أطلق العرب بعض الأسماء المتعددة على بعض أجزاء العيون؛ منها:

١. اللحظ: وهو مؤخرة العين الذي يلي الصدغ .

٢. المآقي: وهو طرف العين الذي يلي الأنف، وهو مخرج الدمع ومجراه.

٣. المحجر: وهو فجوة العين... وغير ذلك.

➢وقد يطلق الشاعر الجزء ويريد الكل، فقد يتحدث عن المآقي، وهو لا يقصد جزءاً، وإنما يقصد العين كلها.

➢وتخرج النظرة من أحد أجزاء العين، ولها تأثيرها، كما ورد في شعر النصح والإرشاد:

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها

فتك السهام بلا قوس ولا وتر

والعبد ما دام ذا عين يقلبها

في أعين الغيد موقوف على الخطر

يسر مقلته ما ضر مهجته

لا مرحبًا بسرور عاد بالضرر.

فقد اشتملت تلك الأبيات الثلاثة على: نظرة مقلة عين أعين.

➢برع كثير من الشعراء في وصف العين قديماً وحديثاً، وتميزوا في بيان أثرها وقدرتها، وكان مما قيل قديماً:

إن العيون التي في طرفها حور

قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به

وهن أضعف خلق الله إنساناً.

➢وهذا الشاعر علي بن الجهم حينما قدم من البادية، ومدح الخليفة العباسي المتوكل قائلاً:

أنت كالكلب في حفاظك للود

وكالتيس في قراع الخطوبِ

أنت كالدلو، لا عدمناك دلواً

من كبار الدلا، كبيرَ الذَّنوبِ.

«الذَّنوب» بفتح الذال هو الدلو الكبير الذي يحتوي على الماء.

فزجره جُلاس الخليفة، لكن الخليفة كان حصيفاً، فعلم بكياسته أن الرجل جاء من بيئة أوفى من فيها الكلب، وأشجع من فيها التيس، لذا أجلسه في قصر، وحوله من دواعي الجمال ما أثر في ذائقته الشعرية، فجادت قريحته بـ:

عُيونُ المَها بَينَ الرُّصافَةِ وَالجِسرِ

جَلَبنَ الهَوى مِن حَيثُ أَدري وَلا أَدري

أَعَدنَ لِيَ الشَوقَ القَديمَ وَلَم أَكُن

سَلَوتُ وَلكِن زِدنَ جَمرًا عَلى جَمـــرِ.

بدأ علي بن الجهم قصيدته بوصف العيون «عيون المها».

وهنا العاشق عمر بن أبي ربيعة الذي جعل العين تقوم مقام اللسان:

أشــارت بطــرف العين خشــية أهلها

إشــارة محــزون ولــم تتكلـــم

فأيقنــت أن الطــرف قد قــال: مرحبًا

وأهــلاً وســهلاً بالحبيــب المتيــم.

ومنهم من وصف العين بأنها ناعسة:

يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبداً أسهرتَ مضناك في حفظ الهوى فنَمِ.

وقريب من العين الناعسة تأتي العين الفاترة، وهذا محمد سعيد العباسي في «عهد جيرون»؛ وهي من أجمل قصائد الشعر السوداني بل العربي:

أفديه فاتر ألحاظ وتل له «أفديه»

حين سعى نحوى يفديني

يقول لي وهو يحكى البرق مبتسماً: يا «أنت» يا «ذا» وعمداً لا يسميني.

➢كما تحدث السياب عن العينين في وصف رائع حين قال:

عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعةَ السَّحر

أو شُرفتانِ راح ينأى عنهما القمر

عيناكِ حين تبسمان تورِقُ الكُروم

وترقصُ الأضواء كالأقمارِ في نهر

يرجُّه المجداف وهناً ساعة السَّحر

كأنما تنبضُ في غوريهما النّجوم.

➢أنشودة المطر:

مطر.. مطر.. مطر.

ويقول إيليا أبو ماضي:

لَيتَ الَّذي خَلَقَ العُيونَ السودا خَلَقَ القُلوبَ الخافِقاتِ حَديداً

لَولا نَواعِسُها وَلَولا سِحرُها ما وَدَّ مالِكُ قَلبِهِ لَو صيدا.

وهنا شوقي حين يطمس على لسانه، ويجعل الحوار عبر العينين:

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت

عيني في لغة الهوى عيناك.

➢ ويتناول الأمير عبد الله الفيصل العيون وتأثيرها حين يقول:

ما كنت أومن بالعيون وسحرها حتى دهتني بالهوى عيناك.

وتناول شعرنا السوداني فصيحه وعاميه العيون بكل تفاصيلها، وتأثيراتها، وأدوارها، فمنهم من أهدى عينيه بحدقها لوطنه؛ تعبيراً عن حبه له:

حدق العيون ليك يا وطن

أصبح مقر وأصبح سكـــن.

➢ وها هو محمد سعد دياب يسمي ديوانًا له: «عيناك والجرح القديم»، وقد حمل قصيدة بالاسم نفسه يقول فيها:

وكنت أحـــدّث عنك الدوالي

وكنت أحـــدث عنك النهارا

أحدثها عن عيون تتـــــوهُ

بِهِنّ الأماسي وتمشي سكارى.

ثم يقول:

أحبك ما كان عندي خيـــار

وهل عند عينيك ألقى خياراً؟

➢ وها هو الحَسِين الحسن، يخشى على خبر حبه من الانتشار؛

فخبّأه وأخفاه، ودثره بنور عينيه، ورغم ذلك ذاع وعم القرى والحضر:

حبيبة عمري.. تفشى الخبر
وذاع وعمّ.. القرى والحضر
وكنت أقمت.. عليه الحصونَ
وخبّأتُه من فضولِ البشرْ
صنعت له من فؤادي المهام
ووسدته كبدي المنفطر
ومن نور عيني نسجت الدثار
ووشيته بنفيس الدرر
وقد كنت أعلمُ أن العيونَ
تقول الكثير المثير الخَطِر.

وهنا صلاح أحمد إبراهيم في رائعته: «يا مريا» يتحدث عن الأهداب، وهي تجاور العيون:

ليت لي إزْميل فدياس وروحاً عبقرية وأمامي تل مرمر
لنحتُّ الفتنة الهوجاء في نفس مقاييسك تمثالاً مُكبر
وجعلت الشعر كالشلال: بعضٌ يلزم الكتف وبعضٌ يتبعثر
وعلى الأهداب ليلاً لا يُفسَّر وعلى الخدين نوراً يتكسر.

ثم يناجي العيون:

يا عيونـًا كالينابيعِ صفاء... ونداوة.

من شعراء السودان الذين كتبوا بالعامية، وغُنيت لهم كثير من القصائد من اشتهر بلقب شاعر العيون؛ لأنه كتب عدداً كبيراً من القصائد في العيون، حتى مُنِح عضوية فخرية في نقابة أطباء العيون، وهو الشاعر عبد الله النجيب:

عيونك كانوا في عيوني

يصدوني

وينادوني

أخاف لو قلت: حبّوني

وأقول: إمكن يحبوني

ويعزوني

ويصافوني

عيونك كانوا في عيوني.

➢ وهو القائل:

صدّقت العيون وكلام المحنة

هناني بحنانو لما عليّ حنّ

قال لي كلمة طيبة

كانت منو حلوة.

➢وهذا محمد بادي ساخراً، وهو يصف بنات البندر، ويخاطب أمه:

عيونن واسعة تبلع مية زي ولدك
تشرّك للموحد والضـــــلالي.

وهنا يصف الأعين بأنها نُجْل «واسعة».

➢ومن أجمل قصائد العامية السودانية التي تناولت العيون:

في عيونك ضجة الشوق والهواجـــــس
وريحة الموج البنحلم فيهو بي جية النوارس.

➢وقد جعل شاعرنا لغة العيون كلام بل أحلى الكلام:

أحلى الكلام لغة العيون:

والآخر حين شبه لون محبوبته بالذهب، وشبه عينيها بعيني الغزال:

آه من صفارو العسجدي
وعينو المتل عين الجدي.

لكن ثمة سؤال يطرح نفسه بإلحاح:

لِمَ أفاضَ الشعراء في التغزل بالعيون، وأكثروا من وصفِها، دون سائر الأعضاء التي لا يقل بعضها تأثيراً ولا جمالاً؟

وفي محاولة للإجابة عن هذا السؤال؛ أرى أن ذلك يعود لعدة أسباب، منها:

•العين عضو متاح للشاعر حال احتشام المرأة واستتارها، فلا يرى غيره.

•العين أول عضو يقع في ناظري الشاعر؛ لذا يكون له التأثير الانطباعي الأول.

•العين لها القدرة كما أسلفت على التعبير عما يجيش بالنفس الإنسانية من مشاعر.

➢يجب هنا أن أشير إلى مفهوم له صلة بالعين؛ وهو خائنة الأعين:

ومعناها: النظرة المُريبة أو المختلَسة، وتعني أيضًا استراق النظر، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ غافر: ١٩.

➢وقد ورد في الحديث النبوي الشريف عن قصة إسلام عبد الله بن أبي السرح بعد ردته:

لما دعا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ الناسَ إلى البيعةِ، جاء به عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى أوقفَه على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ فقال: يا نبيَّ اللهِ بايعْ عبدَ اللهِ، فرفع رأسَه فنظر إليه ثلاثًا كلُّ ذلك يأبى، فبايعه بعدَ ثلاثٍ، ثم أقبل على أصحابِه فقال: «أمَا كان منكم رجلٌ رشيدٌ يقومُ إلى هذا حينَ رآني كففت يدي عن مبايعتِه فيقتلَه؟»، فقالوا: ما ندري يا رسولَ

اللهِ ما في نفسِك، ألا أومأت إلينا بعينِك، قال: «إنه لا ينبغي لنبيٍّ أن تكونَ له خائنةُ الأعينِ».

وذاك لأن عبد الله بن أبي السرح أسلم ثم كفر، قبل أن يسلم في القصة أعلاه، وكان من كُتَّاب الوحي، وكان يروِّج لدى الكفار أنه كان يضيف أثناء كتابته القرآن كلمات ليست منه.

➢وللعيون ألوان متعددة منها: الأزرق والبني والعسلي والرمادي والأخضر...؛ ذلك لأن الجزء الملون من العين الذي يسمى القزحية، يحتوي على صبغة لونية تحدد لون العينين.

•العيون الزرقاء: لها مستوى منخفض من الصبغة الموجودة في القزحية.

•العيون البنية: هو لون العين الأكثر شيوعًا، والبنية الداكنة قريبة من السواد، لكن لا يوجد اللون الأسود الكامل الصافي.

•العيون الرمادية: قد يطلق على العيون الرمادية: اللون «الأزرق» ابتداء، وقد يختلف هذا اللون من اللون الرمادي إلى اللون الأزرق إلى اللون الأخضر بسبب عوامل متعددة.

•العيون الخضراء: اللون الأخضر هو لون العين الأقل شيوعًا.

•العيون العسلية: تتكون في الغالب من ظلال من اللون البني والأخضر.

➢في العامية السودانية يقولون: أخضر للون الأسود، يقولونها لمن لونه أسود أو قريب منه، ولعل لذلك مرجعًا؛ ففي القرآن: «مدهامتان» الرحمن ٦٤، بمعنى شديدة الخضرة، ومائلة للسواد.

➢ويقولون كذلك: أزرق لمن مال لونه للسواد، وورد في القرآن: «ونحشر المجرمين يومئذ زرقًا» طه ١٠٢؛ زرقًا: لتغير ألوانهم وعيونهم من شدة الهول.

➢للعينين أهمية كبرى في الحياة، وفقدها بالعمى مؤلم جداً، وتتعقد معه حياة صاحبها، وصبرُ الإنسان على العمى أمرٌ صعب؛ لذا عظُم أجره؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنَّ اللهَ قالَ: إذا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ منهما الجَنَّةَ، يُرِيدُ: عَيْنَيْهِ) صحيح البخاري.

➢هكذا كان لذلك العضو كل ذلك التأثير، وذلك الجمال، وتلك الأهمية، تنوعت أسماؤها، وتعددت أجزاؤها، وتباينت تأثيراتها.

❊ ❊ ❊

كبار السن والبيوت الخاوية

●كثير من البيوت فيها واحد من كبار السن، تأرز إليه الأرواح، وتهوي إليه الأفئدة، ويلوذ به أحدنا إن حمي عليه وطيس الحياة، ويلجأ إليه أحدنا إن احتدمت الخطوب، وادلهمت عليه المصائب. يلتمس عنده المشورة، ويأخذ من خبرته، وينهل من معينه، ويشرب من مورده العذب.

هو مدرسة الحياة في أجلّ معانيها، وأعلى مقاماتها، وأنبل فضاءاتها، نعمة أنعم الله بها على تلك البيوت، يمثل كبير السن حائط صد، ويجسد الحماية في أقوى مراميها؛ يعطيك سلافة تجربته، ويمنحك عصارة خبرته، ويهبك زبدة أفكاره، ويقيك بإذن الله من الخطأ، ويمنعك بأمر الله من الزلل.

يكون بمثابة الأمان من نكبات الدهر، وتستمد منه القوة عند الخور، فهو باب بينك وبين الآفات، وحاجز بينك وبين المكاره، إن وقع هذا الباب أو هوى ذلك الحاجز تجدك مواجَهاً بها، لا تكاد تدرك كيف تفعل.

ولكن إن غادر الفانية، فلا أقول لكم: كيف تكون تلك البيوت وهي خاوية على عروشها؟ لا تكاد تسمع فيها إلا صفير

الريح، وحفيف الشجر، خلت وخوت وأقفرت، ومضى الكبير وكأنه أخذ معه الأنس، وحمل معه الألف، فلا تجد الباب مفتوحاً، ولا الناس مجتمعين، ولا الضحكة مجلجة، ولا الأصوات ندية، ولا الكلمات معبرة، ولا الابتسامات نقية.

بعده يكون الجميع في شغل من أمرهم دون شغل، في عجلة من أمرهم دون مبرر، يمضون لا يدرون إلى أين، لا يستمتعون بجلسة، ولا يستسيغون شراباً، ولا يستلذون بطعام، ولا يهرعون للعودة؛ لأن الركن الركين والحصن الأمين الذي يعودون إليه لم يعد موجوداً.

غاب وغابت معه الرحمة، ومُحقت البركة، وذهبت المحبة، وحمل معه كل شيء جميل، فلم تعد للحياة معنى، ولا للجماعة وحدة، ولا للقاء فرحة، ولا للاجتماع سعادة، ولا في العودة رغبة.

***

ورحل المزمار

- ها هي أرضنا تنقص من أطرافها، وها هي أرضنا تغطت بالتعب، واتشحت بالسواد، وخيم الحزن عليها ..

نعى إلينا الناعي الشيخ القارئ نورين محمد صديق، مذ سمعت الخبر كنت أتنقل بين الوسائط؛ حتى أرى مصدراً واحداً يكذب الخبر، وينفي النبأ، ولكن خاب مسعاي وكلَّ بصري وأنا أبحث عن ذلك فالجميع يؤكدون الخبر.

صوت رخيم عذب غض طري شجي، تسمع منه القرآن، كأنه أنزل الساعة، أوتي مزماراً من مزامير داود، صوت يحبّر القرآن تحبيراً، يعطي الآيات دلالاتها، ويمنح السور أبعادها، ويهب الكلمات والعبارات مضامينها .

كان أحدهم كلما يركب معي يطلب مني تشغيل مصحف نورين، وكان يقول: إنه صوت يذكرك الموت، وكفى بالموت واعظاً، يذكر الموت؛ لأنه يقرأ من القلب، ولأن قراءته لم تقف عند حنجرته، فقد تجاوزتْها لتخرج من قلبه لقلب المستمع، كان يقرأ برواية الدوري فيبدع، ويجعلك تبحث عن دلالة الكلمة التي اختلفت عما درج عليه الكثيرون في القراءة

المشهورة عند حفص عن عاصم.

من أجال بصره بين صور الشيخ، ما وجده إلا مبتسماً أو باكياً، حاله بين هذين الحالين، فهكذا الحياة فرح وحزن، وهكذا نورين يعطي كل لحظة ما يناسبها، يبكي وهو يقرأ القرآن، ويبتسم في غير ذلك من المواضع، ويضحك حتى تبدو نواجذه .

رحل نورين مع كوكبة من الحفاظ عائدين من شمال البلاد إلى العاصمة في رحلة دعوية، رحلت بعثة الشهداء بكامل أعضائها؛ كما رحل سبعون من القراء والحفظة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في بئر معونة، لحق بهم نورين وصحبه شهداء أيضاً في حادث مروري مؤلم .

لا يعرف الكثيرون رفاق نورين في هذه الحادثة، ولكن ما ضرّهم إن كان رب الكثيرين يعرفهم، فقد صعدت أرواحهم إلى بارئها، وسمت محلقة إلى جنان ربها، وناموا ليلتهم في برزخهم يقولون: ربنا أقم الساعة.

لم ينطفئ نور القرآن؛ فالله متم نوره، ولم يسكت صوت نورين؛ لأن تسجيلاته منتشرة في الوسائط، كلما استمع لها أحدهم دعا له، وهذا والله الخير العميم، والفضل الجميل الذي أراده الله له؛ فحسناته مستمرة، وعمله متصل غير منقطع. حسنات كالجبال تثقّل ميزانه كلما استمع له أحدهم، وهو يقرأ

القرآن، ويبكي بصوته المؤثر، كلما حفظ أحدهم آيات، كان نورين سببًا في حفظها، كلما تدبر أحدهم آية كان نورين سببًا فيها .

رحم الله الشيخ نورين وصحبه، وغفر لهم، وبارك في ذرياتهم، وعظم الله أجرنا جميعًا.

***

أبلة كوثر

•كانت امرأة ستينية، تمتلك مطعماً للفلافل في حي الدقي بالقاهرة، مجاوراً لجمعية الأهرام الاستهلاكية بعد نزولك من كبري الدقي، وأنت متجه للجيزة، على يمينك بمسافة ٥٠ متراً تقريباً من شارع الدقي الرئيس.

•كنا نسكن جوارها، ونأكل من مطعمها، كنا نفضّل السكن في تلك المنطقة رغم غلاء أسعار الشقق فيها لعدة أسباب؛ أهمها: قربها من مطعم أبلة كوثر، وقربها من جامعة القاهرة حيث ندرس، وحتى لا نضطر لركوب المواصلات، وذلك الأمر في القاهرة المكتظة فيه إرهاق أيما إرهاق.

•إن كانت صفية زغلول هي أم المصريين، فإن أبله كوثر هي أم الطلبة السودانيين في القاهرة. جبرت خواطرنا المكسورة، ورأبت صدوع أجنحتنا المهيضة.

•كنا صغاراً في السن، حتّمت علينا الأقدار أن تكون دراستنا في أم الدنيا، وفي عاصمتها القاسية، فالعواصم الكبرى هي مدن بلا قلب، ولكن وجدنا جناح الرحمة في هذه السيدة؛ مما خفف علينا وطأة الغربة، وقلة الخبرة، وبُعد الأمهات، فكانت أماً لكل واحد منا.

•الوقت: ثمانينات القرن الماضي، امرأة تقف على رجليها معظم اليوم، فالمطاعم الشعبية في القاهرة لا تقفل أبوابها، وليس في قاموس القاهرة تلك الأيام مواعيد للوجبات، فكل الأوقات مواعيد للأكل، يحكمك في ذلك عملك ودراستك وطريقك، فحين يدعوك نداء الجوع، تجد رجليك تقودانك حيث أبلة كوثر دون تردد، ودون أن تتحسس جيبك: هل معك ما يكفي للوجبة أم لا؟

نأتيها صباحاً وظهراً ومساء وآخر الليل، كيفما اتفق، حين يدعونا نداء الجوع، يأتيها أحدنا جوعان، ويخرج منها شبعان، نغدو إليها خماصاً، ونروح منها بطاناً.

•يتغير الوقت، ويتغير الطلاب، والثابت الوحيد وسط تلك المتغيرات هو ابتسامتها التي نستظل بها من هجير البعد عن الأهل، ونرتاح عندها من حدة الضغوط، ونستدفئ بها من شدة البرد القارس.

•«يا شعباااااااان» تنادي ابنها الذي يساعدها في عمل المطعم، «شوف الأساتذة ياكلوا إيه، وراهم مذاكرة»، لم نكن أساتذة، وإنما كنا طلاباً، نتلمس طريق الجامعة، نضل ونرشد، نخطئ ونصيب، لكنها تعطينا طاقة إيجابية بهذه الكلمات.

•هنا يترك شعبان كل شيء، ويتجه نحونا بابتسامة تشبه

ابتسامة أمه، فيسلّم، ويسجل طلباتنا التي أصبحت معروفة لديه فيما بعد، ولم نكن بحاجة لتكرارها كل يوم. ولم يكن بحاجة لسؤالنا عنها لاحقًا.

•نحن السودانيين لنا طقوسنا في أكل الفول، نأكل في طبق واحد كبير، ونخلط الفول بالطعمية والسلطة وغير ذلك، وعندما يكتمل ذلك الخلط نضع عليه الزيت، غير أن المصريين كانوا يأكلون في أطباق صغيرة، لكنها متعددة، ومتخصصة، كل طبق يحمل صنفًا لا يختلط مع غيره.

•تعلّم شعبان صناعة «الفول المصلح»، الذي يتميز به السودانيون، فكان «يكسّر» الفول، ويضع عليه الطعمية والسلطة والزيت، واضطرت أبلة كوثر مشكورة لتوفير طبق كبير؛ حتى يسع ذلك كله.

•كانت تمر بنا أيام عجاف، وسنين كسني يوسف، حين تتأخر النثريات التي تصلنا شهريًا من حكومتنا عبر السفارة السودانية، أو حين تتأخر تحويلات ذوينا من الخارج؛ إذ تهبط حينها على جميع أعضاء الشقة حالة من الفقر والمسغبة، لكننا كنا نقلق في السعي لتوفير بعض الالتزامات، وما كنا نأبه للأكل، طالما هناك ابتسامة تستقبلنا، وصوت يناديا، ووجه يرحب بنا، وقلب يعطف علينا، طالما هناك امرأة، قامة وقيمة، باسقة كالنخلة، شامخة كالجبل؛ تدعى أبلة كوثر.

•نمضي إليها ولا نملك في جيوبنا «بريزة»، ولا تسألنا، نطلب ونأكل ونشبع ونشكر ونغادر، وحين ميسرة، نسدد لها دَينها المادي، أما دَينها المعنوي، فلن نستطيع تسديده، ولا نملك غير الدعاء لها.

•زرتها في ٢٠٠٧م بعد سنوات طويلة من فراق القاهرة، وجدتها، ووجدت مطعمها، ولكن الذي تغير شيئان: شعبان لم يكن موجوداً، فقد سافر لإحدى المحافظات للعمل، والمتغير الثاني: لم تكن رِجلا أبلة كوثر قادرتين على حملها بعد كل تلك السنين، فقد أعمل فيها الدهر معاوله، فكانت جالسة، ولكن صوتها وصيتها يملآن المكان، كانت قادرة على إدارة المطعم ومَن فيه من على كرسيها، يعاونها أخوها.

•كان أحد أصدقائي المقربين قد غادر القاهرة بعدنا متأخراً؛ لأنه كان يبحث عن هجرة لأوروبا، فكان له ما أراد، لكنه غادر وفي عنقه خمسون جنيهاً ديناً لأبلة كوثر، وحينما علم أنني سأزور القاهرة، قال لي: أعطِ أبلة كوثر الخمسين، واشكرها، واعتذر لها على التأخير بالإنابة عني.

•في زيارتي تلك، وبعد أن شربت معها الشاي، وتذكرنا تلك الأيام التي أنقذتْنا فيها من الموت جوعاً، وضحكنا كما لم نفعل من قبل، وسعدتْ جداً عندما علمت بأننا في مواقع مميزة، وقد أكرمنا الله، فرحتْ كما تفرح الأم بنجاح أبنائها،

قلت لها: صديقي «...» يسلم عليك ويشكرك ويعتذر لك، ولك عنده خمسون، وأعطيتها مئة، لكنها أقسمت ألا تأخذ إلا الخمسين، وقالت لي: لولا أنه أوصاك بتسديدها ما أخذت منكم شيئًا، فأنتم أولادي.

•إلى متى تصر هذه المرأة أن تغدق علينا من فيض كرمها؟ طلابًا وكهولاً؟

مازلنا نستذكر نحن أعضاء تلك الحقبة، ورفقاء ذلك الكفاح، وأصدقاء ذلك الزمن إلى الآن مواقف هذه السيدة العظيمة، تصلها دعواتنا الصادقات حيث كانت، لا أدري إن كانت فوق هذه البسيطة أم تحتها، لكن هي امرأة مررنا بها فترة من الزمن، وتركت فينا ذلك الأثر الذي استعصى على النسيان، وتأبّى على الاندثار.

•كيف كانت ستكون القاهرة لو لم تكن فيها تلك السيدة؟ كيف ستكون أوقاتنا إن لم تعطرها بمواقفها النبيلة؟ كيف وكيف وكيف؟..

•كانت أبلة كوثر هرمًا رابعًا، يزيّن فضاءات القاهرة، وقلادة جميلة تجمّل عنق تلك المدينة. كانت القاهرة هي أبلة كوثر، وكانت أبلة كوثر هي القاهرة، فأبلة كوثر هي الحياة.

سلام عليك حيث أنتِ..

***

ولأهل اليمن حقٌّ علينا

•كانت جارة البحر الأحمر، أمتار قليلة تفصل بين سريري وبين البحر، يمكن أن ينطبق عليها قول الشامخ «الطيب صالح» في روايته: «موسم الهجرة إلى الشمال» على لسان بطله مصطفى سعيد، وهو يصف موقع قريته جوار النيل: «إذا أصابني الأرق ليلاً، أخرج يدي من تحت الغطاء، وأحرّكها في مياه النيل؛ حتى يعاودني النوم».

•هم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : «أرقُّ أفئدة، وألين قلوباً»، وأينما سرت في اليمن السعيد تحققت أمامي ماثلة معاني: «الإيمان يمان، والحكمة يمانية»، هذا الجزء من الحديث النبوي منحوت في مجسم أمام جامعة صنعاء، وهو أيضاً متجسد على قدمين، أنى اتجهت، وحيثما تجولت.

•ولا عجب، فملكتهم القديمة قالت: «ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون» فما الحكمة إذن، إن لم تكن تلك؟.

•كنت أعشق رائي اليمن المبصر عبد الله البردوني منذ الصغر، وزاد عشقي له ولبلاده عندما التقيته في القاهرة، يقول الشعر غضاً طرياً نديا عذباً رقراقاً، ويتحدى الصعاب والعمى،

شأنه شأن كل اليمنيين الذي كيّفوا بيئتهم القاسية؛ لتكون طوع يديهم.

●يقول البردوني:

مُـذ بدأنا الشـوط جوهرْنـا الحصى
بالـدم الغالـي وفردسْـنا الرمـالْ
واتَّقدنـا في حشـا الأرض هـوىً
وتحولنـا حقـولاً وتـلالْ
مـن روابـي لحمنـا هـذي الرُّبا
مـن رُبـا أعظمنـا هـذي الجبـالْ.

أحببت عبد العزيز المقالح الأكاديمي البارع والشاعر الرائع، وحفظت له وهو يقتبس مقولة الإمام أحمد بن حنبل: «لا بد من صنعاء وإن طال السفر» في هذا الشوق الجارف:

لا بد من صنعاء يومـاً تغنّى في منافينا القـدرْ
لا بدَّ من صنعاء وإن طال السـفرْ
لا بدّ منها.. حبُّنا، أشواقها تذوي حـوالينا..
إلى أين المفرْ؟

ورددت من اللاوعي رائعة أبي بكر سالم التي لا تقل عن «لامارسييز »فرنسا:

من يشبهك؟، يا يمن، أنت الحضارة أنت المنارة.

أنت الأصل والفصل، والروح والفن.

كنت كاتبـاً راتبـاً في القسـم الثقـافي في صحيفـة اليمـن الأولى، صحيفـة الثـورة، كانـوا يحتفـون بمـا أكتـب، ويقيّمـون مـا أنظـم، ويضعون مقالي جوار عمود المقالح.

•كانـوا يكنّـون في عقلهـم الجمعـي احترامـاً عجيبـاً للغريـب، يمارسـونه دون تكلـف، ويفعلونـه بـلا تزلـف، ويورثونـه لأبنائهم مـن غيـر تزيـف، ويـرون أن الغريـب جـاء لمصلحتهـم وخدمتهم، كانوا ينادون الغريب بلفظ «أستاذ» حتى لو لم يكن أستاذاً.

•مهمـا تكالبـت عليـك نوائـب الدهـر، فـلا تحمـل همّـاً؛ فهـم يقتسـمونه معـك، ويعينونـك عليـه، ويحملونـه منـك، ويضعونـه عنك.

•حسـن تعاملهـم، وجميـل ما يسـدونه لـك من أخـلاق، يخفف عنـك قسـوة الطبيعـة، وشـظف الحيـاة، وضغـط المعانـاة، وفـراق الأهل، ونأي الوطن.

•التعاقـد في اليمـن كان غريبـاً بعض الشـيء، فالراتـب كان على عملتيـن: بالريـال اليمني والـدولار الأمريكي، ولانخفـاض قيمة الريـال اليمني فكان تعويـل المعلميـن علـى الشـق الـدولاري، ولكـن لأسـباب يكـون تسـليم الرواتـب الدولاريـة نهايـة العـام الدراسي، وقبيل السفر بأيام قليلة.

•لهذا كان أصحاب المحلات يعلمون ذلك، ويقدرونه، فكانت أمورنا تمضي طوال العام كما نود، نأخذ كل احتياجاتنا من الجزارة والخضار والصيدلية والسمك والمخبز وإلى إيجار البيت، كل ذلك على الدفتر، تسجل ما أخذته طوال العام، وتسدد عند استلامك الرواتب الدولارية، أو ما كان يسميه المعلمون «التصفية».

•استلام التصفية يكون في البنك المركزي وفروعه في المدن، ومعظم المعلمين يعملون في القرى، بمعنى أنك ستسافر لاستلام التصفية، ورغم ذلك لا يشك أحد من أصحاب الدَّين أنك لن تعود، لا يطلبون ضمانًا، ولا كافلاً، ولا توقيعًا.

•تطلب حاجاتك من المحل، ويعطيك القلم والدفتر، وتسجلها بنفسك، ثقة مفرطة، ويقين ممتد. وأنا أذكر أن دفاتر الجزار وصاحب محل السمك كانت في بيتي، وصاحب البيت الذي استأجرت منه في «بيت الفقيه» كان أعمى، يستأمنني على تسجيل قيمة الكهرباء وأقساط الإيجار.

•كنا في «الصليف»، حينما أصيب أحد المعلمين السودانيين بانفصال في الشبكية، وقرر مستشفى الآنسي المتخصص في طب وجراحة العيون حاجته لعملية، تكلف آلاف الدولارات، ولم يكن المبلغ متوافراً لدينا؛ لأن التصفية كما أسلفت تأتي متأخرة، لا أنسى كيف هب المعلمون اليمنيون فعرضوا

خدماتهم، منهم من عرض رهن سيارته للمستشفى، ومنهم من عرض ذهب زوجته، ومنهم.. ومنهم...

•كنت أخرج للمدرسة صباحاً، فتأتي الجارات من اليمنيات ليساعدن زوجتي في عمل البيت، ويؤانسنها، ويحملن الطفلة الصغيرة التي رزقتُ بها هناك.

•أكون في منزلي، فأسمع طرقاً على الباب، فيكون الطارق إما امرأة تستشير في مسألة فقهية، أو شاباً يطلب رأيك في قضية تخصه، أو رجلاً يستفتيك، أو مريضاً يحمل علبة دواء يريد منك بيان كيفية الاستعمال، كانوا يرون في المعلم أنه مهن في مهنة، ورجال في رجل، تأوي إليه أفئدتهم، ويصوّبون تجاهه أسئلتهم؛ ليفك لهم شيفرات الحياة المعقدة.

•تقف في المطار أو في أي مصلحة حكومية في طابور الإجراءات، تجد ثلاث نوافذ بهذا العنوان: اليمنيون، والأشقاء «أي: العرب»، والأجانب «أي: غير العرب».

•لم أرَ طيلة سنيني الأربعة في اليمن لوحة لمحل من المحلات تحمل اسماً أجنبياً، يعتزون في عقولهم الباطنة بعروبتهم، ويتأبّون على الاستلاب.

•مرضت زوجتي وأنا في «الزهرة»، فأرسلتْ إليّ إدارة المدرسة: أن كن معها، ولا تداوم، فصادف ذلك أيام اختبارات؛ فأرسلوا لي وأخذوا الأوراق، وعقدوا الاختبار، وأعادوا لي

الأوراق لتصحيحها في البيت.

•تقام الصلاة، فيتأخر الإمام، فيُجمع المصلون كلهم قولاً واحداً أن الأستاذ هو من سيؤم القوم، وكنا في الصليف يترجل الإمام عن منبره ليمتطيه معلم، فيخطب الجمعة بالمصلين.

•تأتي ومعك زوجتك لتركب البيجو وكانت من وسائل النقل بين المدن فيخيّرك السائق والركاب؛ لتختار المقاعد التي تراها ملائمة، وقد يعاد ترتيب الركاب، وقد يتخلى أحدهم عن تلك الرحلة بطيب خاطر؛ ليسافر في التي تليها، المهم عندهم أن الأستاذ وعائلته يكونون بخير.

•تنقطع المياه عن القرية، فأسمع طرقاً على الباب، فأفتح، فأجد «دبة» ماء، ولا أجد من أتى بها، سقى لي هذا الرجل، ثم تولى إلى بيته.

•كانت بدايتي في الحديدة في منطقة «الصليف»، وكانت أكثر المناطق الثلاثة التي عملت فيها تأثيراً في نفسي، وما زال المعلمون اليمنيون متواصلين معي حتى اليوم ومنهم: «الرجل النبيل قاسم تية، وعيسى المريسي، وغيرهما...».

•وما زال الطلاب الذي درّستهم متواصلين معي إلى اليوم رغم طول الزمن، ومنهم «غالب القاضي، باسل محفوظ، عبد الله كليب، عبده بسة، طارق وأنور معجمي، محمد سليمان، محمد ثابت، وغيرهم...» والقائمة تطول، رغم تلك السنوات

لـم ينقطـع التواصـل، وأفرح كثيراً عندما أعلـم أن عدداً من طلابي تبوؤوا اليوم مراكز متقدمة داخل اليمن وخارجها.

●وكـم تـزداد سـعادتي عندمـا يخـبرني أحدهم أنه كان لـي الفضل بعـد الله في تغييـر مسـاره في موضـوع مـا، أو في توجيـه حياته لقضية مـا. أو تعديـل سـلوكه في موقـف مـا، فـأرى أن غرسـي قـد أثمـر، ونباتي قد أينع.

●هـذه زهـرات، أريجهـا مـا زال يفـوح، قطفتها من دوحـة اليمن الظليلـة، ومواقـف نبيلـة منتقـاة مـن أهـل (الصليـف و«القريـة» الزهرة بيت الفقيه)، ولو اسـتطردت ما وسـعتني هذه المسـاحات الافتراضية، ولكن حسبي من القلادة ما أحاط بالعنق.

لكـم التحيـة أهـل اليمـن جميعـًا، وبوركـت ذكريـات تلـك الأيام التي قضيناها بينكم..

❊❊❊

ربع قرن في مملكة الخير

هي أرض الحلم لكثير من الذين ضاقت بهم الحياة في بلادهم، وهدف لعدد ممن تقطعت بهم السبل، ومقصد لمن يبحث عن سعة رزق، ومرام لمن اشتاق لرؤية بيت الله الحرام، وابتغى تنشق عبير النبي صلى الله عليه وسلم، وأريج صحبه الكرام رضي الله عنهم.

أرضٌ درج عليها النبي صلى الله عليه وسلم، وبعض الأنبياء، فربما وأنت في بقعة ما، كان فيها نبيك صلى الله عليه وسلم يومًا ما، وربما وطئت قدماك مكانًا وطئته قدماه الكريمتان، مِن هنا، ومن وجود الحرمين الشريفين، وبقية المشاعر والمزارات، ولغير ذلك أيضًا، كانت بلاداً مختلفة عن غيرها.

بلاد لها القدرة على احتواء جميع التناقضات، وصهْر كل التباينات، فقد حوت كل الجنسيات التي في العالم.

شعب قادر على التعاطي مع الآخرين، بكل خلفياتهم المتشعبة، ومشاربهم المتنوعة، فقد اكتسب مواطنو هذه البلاد قدرات فائقة على استيعاب الآخرين بكل ثقافاتهم.

أرض تضج بزخم الماضي، وعبق التاريخ، تكاد وأنت

تمضي في طرقاتها أن تسمع صوتًا من الأعماق القديمة، يردد:

قربًا مربط النعامة مني.

وتكاد تقابل النابغة الجعدي، وهو يُنشِد لرسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم:

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا

وإنا لنرجو فوق ذلك مظهراً.

ويأتيك صوت صمصامة ابن معد يكرب، وهي تدك الخصوم، وصليل حسام ابن الوليد، وهو يطارد الأعداء، وتكاد تسمع جلبة خيول عثمان بن عفان رضي الله عنه، ونوقه وهي ترعى وترتع؛ استعداداً للانضمام لجيش العسرة.

تكاد ترى نغير أبي عمير، يغرد ويشقشق قبل أن يموت، وتسمع نشيج أبي عمير؛ حزنًا على نغيره، ثم تلمح هدوءه حين طيَّب النبي صلى الله عليه وسلم خاطره: يا أبا عمير! ما فعل النغير؟

هي أرض الأنبياء والنبوءات والتاريخ، وهي بقعة حوت التراث العربي، وبؤرة انطلق منها الإشعاع ليضيء العالم.

جئتها ولم تكن مغترَبي الأول فكنت قبلها في مصر طالبًا، وفي اليمن معلمًا، وتناولت تلكما التجربتين في كتابات سابقة، فللأماكن عبيرها، وللمساحات عبقها، وعندي شجن عجيب تجاه ذلك كله.

جئتها بطفلين حدثين لم يتجاوزا الثالثة، وخرجا منها، وهما على أبواب الجامعة، ورزقت فيها باثنين آخرين؛ أحدهما في الجامعة، والأخرى على وشك الدخول للجامعة.

ربع قرن والربع كثير أمضيته في تلك البلاد التي تتربع فوق هام السحب، أعطيتها كل ما أملك من علم وخبرة ومعرفة، وأعطتني مما تملك، من بعض مال، وكثير مكانة، وعظيم تقدير.

لا ينبغي أن تقتنع بأحكام الآخرين قبل أن تجرب، ولن تدرك أن العسل ذو طعم حلو إلا بعد تذوقه، ولا البصل يُسيل الدموع إلا بعد تقطيعه؛ لذا ليس من الحصافة أن أحكم على المملكة وشعبها إلا بعد أن أعيش فيها وبينهم، وليس من الكياسة أن آخذ أحكام الآخرين جاهزة وأتبناها، وأنا القائل: لا تجعل عقلك فندقًا يستضيف أفكار الآخرين.

حينما كتبت عن مصر، وجسّدتها في شخصية تلك السيدة ذات القيمة والقامة «**أبلة كوثر**»، وعن اليمن في «**ولأهل اليمن حق علينا**»، قال لي أحدهم: لِمَ لا تكتب عن السعودية؟ قلت له: لأني كتبت عن مصر واليمن بعد أن غادرتهما، وسأكتب عن السعودية بعد أن أغادرها؛ حتى لا يُفهم كلامي نفاقًا، ولا يُظَنّ أن كتاباتي رياء.

لكنني الآن كتبت عن السعودية، وأنا فيها؛ لأني أدركت أني أكملت فيها ربع قرن، وذلك حدث يستحق الكتابة عنه.

كتبت عنها الآن؛ لأني أدرك أنه لم يبق لي فيها الكثير من الوقت، طوعاً أو كرهاً، فإني مغادرها قريباً لا محالة؛ لذا أكتب الآن، وقلبي مطمئن أن ما أقوله لن يُفهَم رياء، ولن يُظَن نفاقاً، وأهل هذه البلاد الذين تعاملت معهم يعرفون أنني لست هذا ولا ذاك.

قدر كبير من الامتنان وجدته، وكمٌّ عظيم من العرفان حظيت به، وهالة ضخمة من التقدير أحاطوني بها، كنت رقماً في عملي لا تخطئه العين، وكنت مستشاراً مؤتمناً على كثير مما يخاف الناس عليه.

خمسة وعشرون عاماً، تلقى التعليم والتربية على يديَّ آلاف الطلاب في شتى المراحل في هذه البلاد.

لي طلاب أفخر الآن بأنهم تبوؤوا مراكز مرموقة في المجتمع، وأسعد جداً بأن حبل الود ما زال موصولاً بيني وبينهم، لا يمر يوم إلا تأتيني من أحدهم رسالة، أو يطرق هاتفي اتصال منهم، أو يقرع بابي أحدهم زائراً.

كانوا يحدثون عني أهلهم وذويهم، ويقرون بفضلي عليهم، وما لي فضل سوى أنني عاملتهم كما أعامل أبنائي، فعلَّمت ونصحت، وخشيت عليهم من عوادي الزمان، وسعيت لأن

أحميهم من جهالات بني الإنسان، فأنجاهم الله من كثير من الأهوال، وخرجوا إلى بر الأمان.

درَّبت عدداً مهولاً من المعلمين، وأهَّلتهم لاقتحام مجال التعليم باقتدار، فنجحوا وأثمروا، وحفظوا الوداد، وأظهروا الامتنان.

عشت فيها ربع قرن، وما شربت ماء الحياة بذلة، بل كنت أفضِّل كأس الحنظل؛ لأكون بعزة، وكنت عزيز النفس، مهاب الجانب، رفيع القدر.

لم أتعرض لذلة ولا لإهانة، ولم يجد أحدهم ثغرة عليَّ يمارس فيها ذوو النفوس المريضة هواياتهم.

أحببت أن أحافظ على سمعة وطني في هذه البلاد، فهم يحترموننا ويفضلوننا كثيراً؛ وذلك لما لمسوه من سمعة حسنة من أمة قد خلت من أبناء بلدي، رغم بعض التشوهات التي حدثت من بعض أبناء جلدتي مؤخراً، لكنني كنت حريصاً على أن أعيد لتلك السمعة سيرتها الأولى.

كنت أحمل همَّ وطني، وأرى أنني سفير له، أقود الدبلوماسية الشعبية في مظهري، وفي كلامي، وفي علاقاتي، وفي عملي، وفي كل شيء، وأرى أن لوطني حقاً عليّ، لا بد من إبرازه كما ينبغي، ولا بد أن أجعل الناس هنا يحترمون وطني في شخصي.

عملت في الطائف، أو الطائف المأنوس كما يسميها أهلها فهي بستان مكة، مدينة جميلة وديعة لطيفة منظمة مرتبة، تحمل تراث الماضي، وتطوُّر الحاضر، مزجت ببراعة بين الأصالة والمعاصرة.

هي إحدى القريتين؛ إذ خلدها القرآن في قول المشركين: **(وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)** الزخرف: ٣١.

جاءها عبد الله بن عباس وصلى فيها، ومات فيها، وخُلِّد ذلك بمسجد ضخم حمل اسمه، وفيها ذلك البستان الذي دخله النبي صلى الله عليه وسلم، حين تناول عنقود عنب من عداس.

وهي التي حار في وصفها شاعرها الرائع الأستاذ عبيد الله العرابي «بعيد النظر»:

مدري وش أكتب عن الطايف وهي درة

الطايف الـــــورد والريحان والكادي

الطايف العـــــشق ما غابت ولا مرة

عن خاطري حاضرة، وتعيش بفؤادي.

أكاد ألمح مبنى قديمـًا، ربما يكون المقر الذي كان الحجاج بن يوسف الثقفي يحفِّظ فيه الصبية القرآن الكريم، قبل أن يغادر الطائف، ويسطع نجمه.

تمر بغدير البنات؛ فتستدعي قصته الأسطورية، وتستمع للشاعر طلق بن عبد الله بن حريب مخاطباً الغدير:

أيا غديراً له في النفس منزلة
ما زال في القلب ذكرى منك يبقيها
فهل ترى يا غدير الأنس تذكرني
إذ جئتك اليوم قد شابت نواصيها؟

وتستمع لرائعة مقبول بن مبارك العرابي، وهو من أبناء الطائف، متغزلاً في مدينته:

وبسد عكرمة يطيب الملتقى
وكذا الشفا وحديقة الحيوان
والردف الغناء بين فتونه
ولدى الهدا كم عاشق هيمان!
وبكل صوب للمصيف ذوائب
ومفاتن لم يحصهن لساني
فالماء يسري في الحقول كأنه
نبض الحياة وعزفة الفنان.

وتمر بوادي وج، فتتذكر الأمير الراحل عبد الله الفيصل الذي يستدعي التذكر، ويستحث الذاكرة:

هـل تذكريـن وداعيـــــنا مصافحـــة

أودعـت فيهـا كريـم الأصـل يمنـاك؟

أو تذكريـن بـوادي (وج) وقفتنـا

وقـد أفاضـت علينـا الطهـر عينـاك!

ثـم تطـرق خلـدك أبيـات الشـاعر حسـين سـرحان، وقـد ميز الطائف عن رصيفاتها:

هـذي الطبيعـة واصلـت وتبرجـت

إن الحبيـــــب ليسـتطاب وصالـه

الطائـف الميمـون لا تعـدل بـــه

شـيئـًا، وإن كـــان الفريـد مثالـه.

بـلاد تمكنـت من أن تجعل شـعبها يعزها، لأنهـا أعزته، ويحب حكومته، لأنهـا تحبـه، ويقـدر ولاة أمره، لأنهـم يقدرونـه، بـلاد سـعت لأن تكـون الأولـى في كل خيـر، والسـابقة في كل علـم، والمتصدرة في كل مجال.

بـلاد طـورت شـعبها تقنيـًا ومعرفيـًا ومفاهيميـًا، وسـعت للأخذ بكل جديد، والاستفادة من كل حديث.

مـن يقـرأ مـا كتبته أعـلاه، يظـن أن ربـع القـرن كان صفـواً مـن الأقـذار والأكـدار، لا أبـداً، فقـد كانـت هنـاك مـرارات، لكنه حال

الدنيا التي لا تصفو لأحد، ولكني أعلل نفسي بالنصف المليء من الكوب، فقد امتلأ خيراً كثيراً، وتقديراً عميماً، واحتراماً جزيلاً، وامتناناً كبيراً، لا ينكر ذلك إلا جاحد، ولست أنا جاحداً، بل حافظاً للجميل.

لكِ مني أيتها المملكة السلام..

***

البنيان المهدوم

•لو بنيتَ جداراً، فهل تسمح لأحد أن يهدمه؟!

ولله المثل الأعلى؛ فالإنسان بنيان الله، فالله وحده هو الذي يقضي بهدمه، وليس لأحد الحق في ذلك، ولا في شيء منه.

قال تعالى: (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً) النساء:٩٣.

فلو كان القاتل قادراً على تحمّل تلك العقوبات الواردة في الآية، فليقتل من شاء، وأنى شاء، وكيف شاء.

وهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يطوفُ بالكعبةِ، ويقولُ: «ما أطيبَك! وما أطيبَ ريحَك! ما أعظمَك! وما أعظمَ حُرمتَك! والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِه، لحُرمةُ المؤمنِ عند اللهِ أعظمُ من حُرمتِك، ماله ودمه».

فعلاً.. صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو الذي زكّى الله نطقه: (وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى) النجم ٣ ٤؛حيث قال: «يَتَقارَبُ الزَّمانُ، ويَنْقُصُ العَمَلُ، ويُلْقَى الشُّحُّ، ويَكْثُرُ الهَرْجُ» قالوا: وما الهَرْجُ؟ قالَ: «القَتْلُ.. القَتْلُ».

•فالهرج قد كثر، ولا يدري من أريق دمه لم فُعِل به ذلك،

ولا يدري من سفك الدم لمَ فَعل ذلك بأخيه المسلم، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «والذي نَفْسِي بيَدِهِ، لا تَذْهَبُ الدُّنْيا، حتَّى يَأْتِيَ علَى النَّاسِ يَوْمٌ لا يَدْرِي القاتِلُ فِيمَ قَتَلَ، ولا المَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ»، فقِيلَ: كيفَ يَكونُ ذلكَ؟ قالَ: «الهَرْجُ....».

فليحذر من سفك الدماء، وروّع الآمنين من أن تضيق عليه هذه الفسحة الواردة في الحديث الشريف أو تتلاشى: «لا يزالُ الرجلُ في فسحَةٍ من دينِهِ ما لم يصِبْ دَمًا حَرَامًا».

كان الشرع دقيقًا في قضية قتل النفس، ولم يُبِح ذلك إلا في حدود ضيقة، وبضوابط صارمة، ضوابط تشرع للمنفذ، وهو الحاكم، وليس الفرد، وضوابط لتطبيق القتل على الفرد، وذلك في حدود ضيقة، وبشروط محكمة، تجعله في أضيق نطاق؛ حتى يحفظ الشرع بنيان الله من أن يهدمه من أراد، فلا أدري كيف يحل الإنسان لنفسه قتل أخيه الإنسان؟!!

فقد عرّف النبي صلى الله عليه وسلم المسلم حين قال: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)، أما من تجرأ على القتل، فكأنه قتل الناس جميعًا: (أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا...) المائدة: ٣٢.

نلتفت حولنا يمنة ويسرة، فنجد الدماء المسلمة الزكية

تراق، والأرواح المؤمنة البريئة تزهق، دون وجه حق.

• ولا أدري كيف يقبل بعض الناس أن يقتلوا بعضاً بالوكالة، وإنابة عن آخرين، وفي قضية خاسرة، يدافعون عنهم في الحياة الدنيا، ولكن عندما تجتمع عند الله الخصوم، حينها لن يدري جواباً، وسيتبرأ منه الذي حضّه.

ولا أعني هنا القاتل المباشر الذي مارس القتل أو باشره، وإنما شركاؤه في القتل كثر، ومنهم من حرّض، ودعا، وأرسل رسائل مباشرة، أو غير مباشرة، توحي بذلك، وتحث على ذلك، فماذا هو قائل أمام الله حينما يسأله: لمَ هدم أو ساهم في هدم بنيان الله؟!

***

ظاهرة المتعازب.. ما هي؟ وما أسباب وجودها؟ وأضرارها، وكيفية علاجها

الأسرة هي النواة الأساسية للمجتمع، وتتكون الأسرة عن طريق الزواج، وقد رغَّب الإسلام في الزواج، وحث عليه، حتى يكبر المجتمع المسلم، ويكون عونـًا في خدمة الدين ونشره، كما ورد في حديث الثلاثة الذين حرّموا على أنفسهم المباحات، فاستنكر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، وقال: (لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنِّي).

وينبغي للزواج أن يكون مودة ورحمة؛ حتى يحقق غايته (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجـًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) الروم ٢١، وينبغي للزوجة أن تكون سكنـًا لزوجها (لتسكنوا إليها)، وأن يكون البيت المسلم ملتزمـًا بأخلاق الإسلام؛ حتى يصبح قادراً على تنشئة جيل قادر يتحلى بالخلق الإسلامي القويم.

خلو بيت الزوجية من المشكلات والخلافات أمر لا يمكن أن يحدث، فقد حملت لنا السيرة خلافات كانت في بيت النبوة،

ولكن الحياة تمضي بالحد الأدنى من التراضي وقبول الآخر.

ولكن قد يختل ذلك التناغم، ولا يكون البيت سكنًا، ولا الزواج مودة، ولا رحمة، ساعتها يحدث أحد ثلاثة أمور: إما الطلاق بنقض عرى الزوجية، وإما البقاء في الزواج مع كثرة المشكلات والخلافات، وإما أن يظل الزوجان في بيت الزوجية، ويعيشان فيه أجساداً لا أرواحًا، بدون تواصل ولا صميمية ولا حميمة، يظللهم الصمت المطبق.

هنا تكون المرحلة التي سميتُ الزوج فيها: المتعازب؛ وهي كلمة ابتدعتُها من نحت وتركيب كلمتين وهما: المتزوج العازب، الذي ينام وحده، ويأكل وحده، ويخرج وحده، وكل واحد من الزوجين له عالمه الخاص الذي يعيش فيه، ولا يلتقيان، لا يدري أحد الزوجين عن الآخر شيئًا.

النحت والتركيب من أبواب اللغة، ويكون بنحت جزء من الكلمة الأولى، وجزء من الثانية، ثم تركيبهما معًا ليصبحا كلمة واحدة، مثل: كلمة «عبشمي»، وهي نحت وتركيب من كلمتين: عبد شمس، كما قال الشاعر:

وتضحك مني شيخة عبشمية

كأنْ لم تَرَ قبلي أسيراً يمانيا.

المتعازب يهمل بيته وأسرته، ويظل مستمراً في حياة العزوبية

الزوجية، والبقاء خارج المنزل مع الأصدقاء، ولا يأتي البيت إلا قليلاً.

يظل المتعازب صامتاً طول بقائه في البيت، لا يوجد حوار بين الزوج والزوجة، وكأنهما يسكنان في فندق، كل منهما يستقل غرفة، ولا يلتقيان على أي شيء، وربما يتواصلان بالرسائل في الأمور المهمة التي يعتمد عليها بقاء البيت.

المتعازب يظل ملتزماً بمنطقة الأعراف، متقوقعاً فيها، فهو في منزلة بين منزلتين، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، لا هو متزوج، ولا هو أعزب.

حالة المتعازب انتشرت بشكل كبير جداً في الفترة الأخيرة، ولها عدة أسباب منها: الرؤية القاصرة للهدف من الزواج، ومنها: عدم تأهيل الزوجين لدخول عالم الزوجية، ومنها تحقيق أحد الطرفين رغبته ومأربه من الزواج، ومنها الاستقلالية المادية للزوجة، وتأثير وسائل التواصل الاجتماعي، ومنها قلة الوازع الديني لأحدهما أو لكليهما، ومنها تدخّل الأهل في العلاقة بين الزوجين، وكذلك اختلاف الفهم لدى أحد الزوجين عن الآخر، وأيضاً تخيُّل أحد الزوجين أشياء غير حقيقية، هو من صنعها وخلقها، ثم آمن بها، وبدأ يعامل الآخر بمقتضاها المتوهَّم من البدء، وصارت عنده حقيقة مسلماً بها، وغير ذلك كثير...

لماذا يصبر المتعازب على العيش في هذه الحالة، ويبقى

رهين الأعراف؟ ويفضل أن يكون مذبذباً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ولا يتخذ أية خطوة لينتقل بها؛ إما العودة للعزوبية، وإما العيش في حياة الزواج الحقيقية؟

ربما نستطيع تفسير ذلك بعدة أسباب: أهمها عندما يكون بينهما أطفال، فيقول: أصبر حتى لا يتشرد الأطفال، ربما يكون من النوع الذي لا يستطيع القيام بحاجاته؛ فيصبر لأنه يحتاج للزوجة لتقوم له بشؤونه من طبخ وغسل ملابس وغيرها من أمور البيت التي لا يحسن فعلها، وربما لعجزه عن اتخاذ قرار، وربما لخوفه من مواجهة ذويه بقراره إن اتخذه، ربما لوجود مصلحة تهمه من استمرار زواجه، وربما لحسابات أخرى غير ذلك..

لكن ربما تكون الاستمرارية في حالة المتعازب خطراً على الأسرة؛ لذا يكون البعد أفضل، والفراق حلاً، وما شرع الله الطلاق إلا لعلاج مثل هذه الحالات.

ولو طرحنا خيار الطلاق بعيداً، وسعينا لعلاج ظاهرة المتعازب، وحتى يعود البيت الزوجي للوضع الطبيعي يجب أن يجلس الطرفان معاً، ويتصارحا، هذه المصارحة قد تجدي حيناً، ولكنها قد لا تكون مجدية أحياناً في مرحلة من المراحل، خاصة لو وضع أحدهما أحكاماً مسبقة، وسبقت نتائجه المقدمات، كذلك لا تكون جلسات المصارحة مجدية لو انعدمت الرغبة في الاستماع، ولم تكن النوايا صادقة ولا

الأهداف نبيلة، ولو تكلم أحد الطرفين أثناء الجلسة أكثر من أن يستمع، ولو لم يترك أحدهما للآخر فرصة أن يكمل كلامه، ويقاطعه قبل أن يكمل فكرته.

لذا قد يلجأ الطرفان للوسيط المصلح (حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها...) النساء:٣٥، وقد ينجح الوسيط المصلح في لم شمل الزوجين، ورأب صدع الأسرة، ومحو حالة المتعازب بنقلها لطرف المتزوج، وإعادة الأمور إلى وضعها الطبيعي، وقد لا ينجح.

لو حدث كل ذلك، وتقطعت الأواصر واستحال الإصلاح فلا بأس من الفراق؛ لأنه قد يكون الخيار الأمثل الذي بسببه يحافظ الطرفان على الحد الأدنى من العلاقات الإنسانية.

لأن الفراق أحيانًا يكون سببًا يمنع من حدوث تشوهات نفسية للأطفال، ويحافظ على بقايا الإنسانية بينهما، وبذا تسلم علاقات أسرتي الزوج والزوجة من التشظي، لأنه أحد خيارين قررهما الله تعالى: (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) البقرة: ٢٢٩، فأفضِّلُ لهما الفراق من البقاء في جو مشحون بالخلافات، أو مفعم بالصمت الذي يمارسه المتعازب في حياته الزوجية.

***

حينما يفيض النيل وتفيض الروح

ضاقت الأرض بما رحبت على العباد والبلاد
بل ضاقت اليابسة وتقلصت مقابل المـــاء
فاض النيل كما لم يفض من قبـــــل
وهطل المطر غزيراً وابلاً غدقًا كما لم يهطل من قبــل
فُجرت الأرض عيونـًا، وفُتحت أبواب السماء بماء منهمر
والتقى المـــــــاء على أمـــر قد قـــدر.

وبات أهلنا ينتظرون أمر الله بأن تبلع الأرض ماءها، وأن تقلع السماء، ويغيض الماء، ويستوي وطني على جودي الأمان، ويتجاوز تلك الفيضانات.

فاضت أرواح ما يربو عن مئة من أهل بلدي مع فيضان النيل، وهوت مئة ألف من البيوت، و تشرد نصف مليون فرد بلا مأوى، يفترشون المياه، ويلتحفون المطر.

أغار النيل على حضارة مروي وآثارها وأهراماتها التي تمتد لما قبل الميلاد، ما بالك أيها النيل؟! كيف لبعض الحضارة أن يهدم بعضها الآخر.

صار الوطن كله نيلاً ممتداً؛ إذ لم يستوعب ذلك المجرى الضيق تلك المياه التي جاءته، فرمى بها لساكنيه وسماره وندمانه:

عربـد الأزرق الدفـــاق وامتزجـا
رَوحـًا كمـا مـزج الصهبـاءَ نشـوانُ.

ما بـال النيـل سـليل الفراديس الـذي كان يهـب الحيـاةَ، نـداؤه أصبـح يـودي بمحبيـه، ويقتـل جيرانـه، ويهلـك الـزرع والحـرث والنسل.

اثبـت أيهـا النيـل؛ فـإن جـوارك فقيـر ومسـكين وأرملـة ويتيـم، اثبت أيها النيل فنحن نحبك وأنت تحبنا.

كيـف بمـن رقـد على فراشـه وتمدد علـى مرقده أن يـزور النوم عينيـه، وهنـاك مـن بـات في ليلـة نابغيـة تسـاوره الرقـش في أنيابهـا السـم ناقـع. كيـف يهنـأ مـن تحيـط بـه ممتلكاتـه وثروتـه وأسـرته وهناك من فقد كل ذلك ولم يبق له شيء؟

لكنـه الشـعب العظيـم الذي تظهـر قدراته عندما يحـوّل المحن إلـى منـح، ذلـك الشـعب الـذي فقـد كل شـيء، ولكنـه لـم يفقـد: «الحمـد لله» التـي تـتردد علـى ألسـنة المنكوبيـن كلما سـألهم أحد عن حالهم.

ذلـك الشـعب الـذي ضاعـت منـه كل مدخراتـه، ولـم تضع منه الابتسامة التي ترتسم على وجه أبنائه.

عجبي مـن أولئـك الشـباب الذيـن وقفـوا في وجـه الفيضـان بأجسـادهم، وأولئـك الأطفـال الذيـن حملـوا أضعـاف وزنهـم؛ ليسـدوا ثغـرات قـد يتسـرب منهـا المـاء، وعجبي من ذلـك الطفل

الذي حمل أخته الصغرى على ظهره لينجو بها.

وعجبي من ذلك الشعب الجميل الذي جاد بكل ما يملك، واقتسم لقمته وداره مع المنكوبين.

لك الله يا وطني

قبل أن تفيق من نكبة تنتهبك أخرى.

ولسان حالك يقول:

لو كان سهماً واحداً لاتقيته

ولكنه سهم وثان وثالث.

فكلما تسعى لنزع نصل يأتيك نصل آخر، وحالك:

رماني الدهر بالأرزاء حتى

فؤادي في غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتني سهام

تكسرت النصال على النصال.

ولكن إن كانت الفواجع كبيرة فإن رب الكون أكبر، وإن كان النيل قاسياً فإن الله أرحم.

وحتماً ستنهض بأمر الله طالما فيك هؤلاء الشباب وأولئك الأشبال.

وستكون رجل إفريقيا المعافى.

وتصبح سلة غذاء العالم.

دمت بخير وطني العزيز.

خطبة حنين.. دروس وعبر

•تجلت في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم صفات القائد العظيم، من قدرة على الإقناع، وحسن تصرف، وسداد رأي، ومعالجة للمواقف، ولمّ الشمل، ورأب الصدع... ولا عجب فقد أدّبه ربه، فأحسن تأديبه، فهو القائل: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»؛ إضافة إلى ما يتميز به من فصاحة وبلاغة، ولا عجب، فهو من قريش، واسترضع في بني سعد، وأوتي جوامع الكلام.

•أتناول هنا خطبة من أعظم خطب التاريخ، تجلت فيها كل السمات المميزة لقائد عظيم، تلك هي الخطبة التي تلت غزوة حنين.

فقد انتصر المسلمون في يوم حُنَيْنٍ، وهي معركة عظيمة، حدثت بين المسلمين بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم، وبين هوازن ومعهم ثقيف، في شوال من السنة الثامنة من الهجرة، وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى، وخلّدها في كتابه الكريم، حين قال: (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم..) التوبة ٢٥.

فقد كان المسلمون اثني عشر ألف مقاتل، وقالوا: والله لن نُهزم من قلة؛ لأنهم انتصروا في معاركهم السابقة، وهم أقل

عـدداً، لكـن الله أراد أن يذيقهـم طعـم الهزيمة المؤقتة حين ركنوا إلـى قوتهـم، واعتـدّوا بعددهـم، واعتـزوا بعتادهـم، ولكـن بفضـل الله استطاع القائـد الحكيـم إعـادة الفاريـن، وجمـع المتفرقيـن، فكان النصر، وكانت الدروس والعبر.

•غَنِـمَ المسـلمون مـن غزوة حنيـن غنيمةً عظيمة، فقسّـمها النبي صلى الله عليـه وسـلم على الْمُؤَلفـة قلوبهـم، وهـم كبـار القـوم الذيـن أسـلموا حديثـاً؛ رغبـة منـه في تمكيـن الإسـلام في قلوبهـم، وهـم مـن كبـار كفـار قريـش، الذيـن طالمـا حاربـوا الإسـلام والمسلمين، لكنهم أسلموا قبل قسْم الغنيمة بأيام قليلة فقط.

أَعطاهـم عطـاءَ مـن لا يخشـى الفقر، ولـم يُعْطِ الأَنصار شيئـاً، الأنصـار الذيـن بذلـوا دماءهـم وأرواحهـم لنصـرة الإسـلام، والدفـاعِ عـن رسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم، الأنصـار الذيـن تبـوؤوا الـدار والإيمـان، وقـد أحبّـوا مـن هاجـر إليهـم مـن المسـلمين، وتقاسـموا معهـم كل شيء، الأنصـار الذيـن مدح أبو بكـر الصديـق رضـي الله عنـه مواقفهـم مـع المهاجريـن مستشـهداً ببيت الطفيل الغنوي:

أبوا أن يملونا ولو أن أمَّنا تلاقي الذي لا قوه منا لملتِ.

الأنصـار الذيـن يؤثرون على أنفسـهم، ولـو كان بهم خصاصة، فكأنَّهـم وَجَـدُوا في أنفسـهم؛ إذ لـم يصبهـم مـا أصَـاب النـاسَ مـن

خير الغنائم، وقالوا بحسرةٍ وأسى: سيوفنا تقطر من دمائهم، وهم يذهبون بالمغنم!!

حزنوا وغضبوا؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعطهم من الغنائم، فهذه الطبيعة البشرية، لكنهم لم يفطنوا للحكمة الرشيدة المقصودة من وراء تصرفه صلى الله عليه وسلم.

فلم يتمالك سعد بن عبادة رضي الله عنه نفسه وهو سيد الأنصار فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ لِيصارحه ويُخبره بما يجول في خواطر الناس، فلما أخبره بذلك، تعجَّب الرسول صلى الله عليه وسلم كيف حلَّ ذلك في قلوبهم؟! وقال له: «فأَين أَنت من ذلك يا سعد؟» قال: ما أَنا إلا من قومي.

رضي الله عن سعد وأرضاه، لم يجامل ولم يداهن، بل صارحه بما جُبِل عليه قلبه، وتلك ميزة لسعد؛ كونه واجه الرسول صلى الله عليه وسلم بما يدور لدى قومه، هنا قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: «فاجمع لي قومك».

فجمعهم سعد؛ فكانت تلك الخطبة:

«يا معشر الأَنصار: ما مقالةٌ بلغتني عنكم، وجِدَة وجدتموها عليّ في أَنفُسكم؟ ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم اللهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ!»، قَالُوا: بَلَى، اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ.

ثُمَّ قَالَ: «أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟»، قَالُوا: بِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ للهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ.

قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ، فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَآسَيْنَاكَ.

أَوَجَدْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إلى إسْلَامِكُمْ؟ أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ اللهِ إلى رحالكُمْ؟

فوالّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهمّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ».

فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللهِ قَسْمًا وَحَظًّا. ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَفَرَّقُوا.

●في هذه الخطبة تجلّت صفة الإنصاف لدى النبي صلى الله عليه وسلم، حين ذكر فضل الأنصار، ولم ينسَه، ولم ينكره، حين قال لهم:

«أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ، فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَآسَيْنَاكَ».

وقبل ذلك ذكّرهم بفضله عليهم، وكيف أنه كان سببًا في هدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك إلى الإسلام.

وتجلت قدرته صلى الله عليه وسلم في الإقناع، حينما بيّن لهم سبب فعله من إعطاء بعض الناس من الغنائم نصيبًا أكبر، حينما أوضح أن ذلك كله لعاعة من الدنيا، «واللعاعة هي الشيء القليل»، وأخذ بيدهم لمربع المقارنة بين نصيبهم ونصيب الناس، فلا وجه للمقارنة بين من يكون نصيبه رسول الله، ومن يكون نصيبه الشاة والبعير!

فمن مهارات القائد: القدرة على الإقناع، فقد تمكن النبي صلى الله عليه وسلم من إقناع الأنصار، وردّهم إليه بقوة المنطق، وصدق العبارة، فاقتنعوا وندموا على ظنهم حتى: «بَكَى الْقَوْمُ وأَخْضَلُوا لِحَاهُمْ»، ورضوا.

تجلت عظمة النبي صلى الله عليه وسلم في إدارة الحوار وقبول الرأي الآخر، وذلك في حديثه مع سعد بن عبادة رضي الله عنه حينما استمع له وأنصت، ثم سأله عن رأيه وهو سيد قومه، وحينما علم أن رأي سعد هو رأي قومه، حين قال سعد بكل جرأة: وما أنا إلا من قومي.

هنا انتقل القائد من الحديث الخاص إلى العام، من السر إلى العلن، فلم يكتفِ بإرسال رسالة مع سعد لقومه؛ إذ طلب من سعد أن يجمع له قومه، ليخاطبهم جميعًا، فكانت تلك الخطبة العظيمة.

•تجلت عدد من المظاهر البلاغية في هذه الخطبة العظيمة، ومنها:

النداء في قوله: «يا معشر الأنصار»، والنداء يكون للفت الانتباه وجذب المتلقي.

والاستفهام في صورِه الحقيقية، وبكل أغراضه البلاغية المجازية، في قوله: «ما مقالة بلغتني... أوجدتم... ألا تجيبونني...».

كذلك القسم في قوله: «فوالذي نفسي بيده»، وفيه كذلك كناية عن موصوف، وهو الله سبحانه وتعالى.

استخدم النبي صلى الله عليه وسلم عدداً من الأدوات الإقناعية لربط الكلام، ومنها استخدام أسلوب الشرط بأداته: «لولا»، وهي حرف امتناع لوجود، وأداته: «لو»، وهي حرف امتناع لامتناع.

كذلك برز التضاد في الخطبة، وكما هو معلوم أن التضاد يوضح المعنى ويبرزه، في قوله: ضلالاً هداكم / عالة أغناكم /

مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ.

ورأينا الجناس الذي يعطي الحروف جرسًا موسيقيًّا، ومنه: «فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ».

ثم ختم بالدعاء: «اللَّهمّ ارْحَم الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ». فتلك دعوة يظهر تأثيرها، وتتجلى بركتها إلى الآن في أهل المدينة المنورة.

هكذا كنا مع هذه الخطبة العظيمة التي تجلت فيها كثير من ملامح شخصيته صلى الله عليه وسلم، ورأينا أنه بحكمته تمكن من لمّ شمل المسلمين، ووأد فتنة قد برز رأسها، وكان من الممكن أن تنخر في المجتمع المسلم أيامها.

***

عنك يا رسول الله

لو رأيتُ وجهك فقط، لآمنت، لأنه ما وجه كذاب، ولو سمعت حديثك لأسلمت، لأنه ليس حديث دجال، ولو رافقتك لأيقنت أنك الصادق المصدوق، فلا يعرف الهوى لك سبيلاً، ولا يتخذ الضلال لك طريقًا.

كنتُ لزمتُ بابك، وسبقت غيري، ونلت شرف خدمتك، وفضل ملازمتك، كنت حملت نعالك، وصببت لك وَضوءك، وهيأت لك فراشك، وأسرجت لك دابتك.

لا أدري كيف كفر بك من رآك، وكيف كذبك من سمعك، لا أدري كيف لم يحمدوا الله أن خلقهم في زمان أنت فيه، ففرطوا في فضل الصحبة، وأضاعوا شرف السبق للإسلام.

لا أتفهم كيف جبذ ذلك الأعرابي ثوبك حتى أثّر في عاتقك، كيف طاوعته نفسه ليفعل ذلك، ولو كنت حاضراً ذلك المجلس، وشاهدت تلك الفعلة التي فعلها وهو من الخاطئين، لقفزت عليه، وأخذت بتلابيبه، وربما لم يفلت مني، وفي جسمه عضو يتحرك.

ولو شهدتُهم وهم يرمون سلا الجزور على جسمك الطاهر

وأنت تصلي عند الكعبة لن أتركهم حتى أفصل رقابهم عن أجسادهم.

ما بال هؤلاء القوم لا يفقهون حديثاً! ما بالهم فرطوا في هذا الفضل! ما بالهم لم يحمدوا الله أن أوجدهم معك سيدي! ما بالهم؟!

ما كنت سأناديك من وراء الحجرات لأزعجك وقت قيلولة، يرتاح فيها ذلك الجسد الذي تسامى فوق كل شيء.

ما كنت سأترك أحداً يجعل صدرك ضيقاً بما يقولون، ولا بما يمكرون، فليهذب أحدهم كلامه، وهو في حضرة نبيه، وإلا فليصمت.

ما كنت سأكثر عليك من السؤال، والاختلاف عليك، كما فعل السابقون مع أنبيائهم.

ما بال هؤلاء القوم لا يستغلون سانحة؟

سيد ولد آدم بين ظهرانيهم، ولا يغتنمونها فرصة.

فرص منحها الله لهم، فلم يستغلوها، خابوا وخسروا.

ما كنت سأترك أحداً يشغلني عنك، لا ولد ولا زوجة.

ما كنت سأدع شيئاً يبعدني عنك، لا مال ولا عمل.

كل دقيقة معك مكسب، سأغتنمها.

سأسعى لخدمتك، وللدفاع عنك، وللنهل منك.

لا أدري كيف يتلكأ أحدهم عندما تأمر أمراً ما، ولا أدري

ابتداءً كيف ينتظرون إلى أن تأمر، ناهيك أن يتلكؤوا في التنفيذ.

لا أدري كيف طابت نفوسهم أن يعذبوك، ويكسروا رباعيتك حتى ينزف منك الدم الطاهر.

لا أدري كيف طابت نفوسهم ليرجموك بالحجارة، ويدموا ساقيك الكريمتين.

جئت إلى عندهم تدعوهم وتهديهم، فلم يؤمنوا، ولم يخلّوا بينك وبين الناس.

كنت سأكون أول المستجيبين

فأنت رحمة للعالمين

ونعمة مسداة.

رحمتَهم ورأفتَ بهم، فأنت (بالمؤمنين رؤوف رحيم) التوبة: ١٢٨، ورحمتَ غير المسلم، وغير الإنسان، فأنت (رحمة للعالمين) الأنبياء: ١٠٧.

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه

فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه

فيه العفاف وفيه الجود والكرم

أنت الشفيع الذي تُرجى شفاعته

على الصراط إذا ما زلَّتِ القدم.

***

عندما يفوح أريج الياسمين

●كأنما قطعة من القلب توشك أن تُنتزَع منه، وتغادر مكانها، فبالله كم للإنسان من قلب حتى يتشظى؟!

إنها ريحانة القلب، وروح الفؤاد، وإكسير الحياة، أخت الجميع، وأم إخوانها، ورفيقة أختها، وحبيبة والدها، وزهرة والدتها.

إنها فرحتنا الأولى، التي نقلتْني لمرحلة الأبوة، فلا أنسى أنها وُلدتْ على يديّ، نسمة رقيقة، خرجتْ في مكان ناءٍ، بوادٍ غير ذي زرع، ولا ضرع، ولا ثمر، ولا حياة، لكن أرضنا اعشوشبت بخروجها، واخضرت قواحل أرواحنا بظهورها، أهدتْنا الفرح الجميل، وما زالت تهدينا، ونحن في المنافي.

عرفتم مَن هنا أعني؟ أزيلوا جوهر الظنِّ
فهذي سائل الدنِّ لها يا أحرفي غنّي.

تحنو على أخويها وأختها، ترشد الحائر، وتهدي الضال، وتواري سوءات مَن زلّ، وتقيل عثرات من أخطأ.

كانت تعطي ظلها؛ ليتفيأه ذووها عن اليمين والشمائل، لم تفصّله على جسدها، بل ظهر فيه الطول، وتعدّى نفعها، ولم تقصر عوارفها على نفسها.

إنها أنس المستوحش، وسلوى المحزون، تخدم أخويها كأمٍّ بديلة حينما شطّ بأمهم النوى، وفارق بينهم وبينها الزمن.

●ما كانت تطلب إلا ما تحتاجه، وكانت طلباتها كفافاً، وما كانت تلح إلا في عمل خير ينفع الجميع.

متفوقة في دراستها، تبيّض الوجه، وتشرّف النفس، وتسعد الخاطر.

لا تتكلم كثيراً، وحينما تضطر إليه، تكاد تعد كلماتها، فهي فتاة الكهول؛ حكمة وأدباً ورزانة، وتقوى وورعاً.

ما كنت أتوقع أن تلك النبتة الصغيرة، يستوي عودها سريعاً هكذا، ويشتد ساقها، وتغدو شجرة مثمرة، وتكون مراماً للآخرين، ومطلباً للطالبين.

ووالله لولا أني أخشى أن أكون ممن رغب عن سنة نبينا صلى الله عليه وسلم ما فعلت.

إذا ما حلقت فكرة أسطِّر أحرفي نهراً
لمن أضحت لنا ذخراً فهذي بنتي الكبرى.

***

رحلة لا تُنسى «صيف١٩٩٤م»

•كانت أصوات القصف تكاد تصم آذاننا، والصواريخ تسقط، وأزيز الطائرات المقاتلة يملأ الفضاءات، والقذائف تهوي على رؤوس الناس، وفوق أسقف البيوت.

كنت كما أسلفت في خواطر سابقة في الحديدة، وفي «الصليف» تحديداً، على البحر الأحمر، تذكرون عندما حدثتكم عن سريري الذي يجاور البحر.

كانت هادئة لم يصبها من حرب الشمال والجنوب أذى كثير، وكنا قرب نهاية أيام الدراسة، وأفاض علينا أهل الصليف ممثلين في إدارة المدرسة من كرمهم بأن سمحوا لنا بإنهاء أعمالنا والمغادرة قبل نهاية الدراسة، وكنت قلقاً؛ لأنه كان لي أخ رحمه الله في صنعاء، ولم يكن التواصل متاحاً، فأردت أن أجتمع به لنطمئن على بعضنا.

ركبت «الأوتوبيس» الذي يتسع لحوالي خمسين راكباً، وكان فيه أربعة من المغامرين فقط، ثلاثة وأنا؛ لأن دخول صنعاء كان مغامرة فعلاً؛ لأنها كانت مستهدفة بالقصف، كان الجميع يحاولون الخروج منها، لكني كنت من الداخلين، وإني لداخلها ما دام أخي فيها، فلا بد من صنعاء وإن طال السفر.

صار الهمُّ بيني وبين خالد أخي مقتسماً؛ فالهم يخف عندما يُقَسّم بين الناس، ثم اجتمع لدينا عدد من المعلمين، وفدوا من جميع قرى ومدن اليمن.

●وكان عادة ذهابنا وإيابنا عبر الخطوط الجوية اليمنية من صنعاء إلى الخرطوم، ومن صنعاء إلى كسلا في رحلات مباشرة، لكن في تلك السنة أغلقت المطارات بسبب الحرب ، ولا وسيلة للعودة إلا السفينة، من أراد أن يعود لوطنه فليركب الفلك، وليقل: بسم الله مجراها ومرساها، ومن لم يرد فلينتظر انتهاء الحرب، وانتهاؤها لناظره بعيد.

قررنا العودة بالسفينة، وتجمعنا على حافلة من صنعاء أخذتنا إلى ميناء الحديدة التي تزوَّدْنا منها بالتقوى قبل «الروتي»؛ لأن الطريق طويلة، فالمسافة التي ينبغي أن تقطعها السفينة من ميناء الحديدة إلى ميناء بورتسودان تستغرق ستاً وثلاثين ساعة، أي: مبيت ليلتين في البحر.

صعدنا السفينة، وكان عددنا كبيراً، ربما يفوق طاقتها الاستيعابية، ورأى المعلمون أن تترك الغرف للعائلات، وقد كان، وانتشر الرجال في ردهات السفينة الضيقة، واحتشد الجميع؛ بحيث لا تستطيع أن تمدد رجليك؛ لكثرة الناس وضيق الأماكن، وبعد لحظات من تحركها تعطل التكييف في

الغرف، ومن لم يركب البحر لا يتفهم معنى غرفة في سفينة بدون تكييف، حينها اضطرت العوائل للخروج لمشاركة الرجال الأسطح والردهات.

كان رفيقي المجاور في تلك السفينة الأستاذ علي فركو رحمه الله رجلاً رائعاً وخفيف الظل، استطعنا بعد محاولات مستميتة العثور على كنبة تتسع لاثنين جلوساً، وعانينا من فرط النعاس وشدة الإرهاق، فقد سقطت جفوننا على عيوننا، واحمرت الحدقات، وفرض سلطان النوم علينا سطوته، وكان لا بد من الاستجابة، ولكن هيهات، وأنَّى ذلك، فلا مكان، هبطت فكرة على الأستاذ علي، وهي أن يكون النوم على تلك الكنبة بالتناوب، ينام أحدنا ساعتين، والآخر يقضيها متيقظاً متحركاً، ليوقظ أخاه بعد ساعتين، وهكذا دواليك.

ولأنه أكبر مني سناً، فقدمته في «وردية» النوم الأولى، فلك أن تتخيل كيف تمر الساعتين على النائم عجلى، وكيف تمر على اليقظان بطيئة، فهذه هي نسبية الزمن، وهذا هو الزمن النفسي؛ كما يسمى في أدب الرواية.

علي فركو عندما هبط عليه النوم، كان ذلك قرب نهاية الساعتين، وأنا كنت متجولاً، أنظر للساعة وعقاربها التي لا تكاد تتحرك، ساعتان كيومين أو هي أكثر، ومع نهايتها بالضبط أيقظتُه، وكان قد غرق لتوه في النوم، ولم يصدق فنظر إلى

ساعته، وقال لي: أنت بيج بين؟! هههههههه، ثم عبس وبسر، وفكر وقدر، وقال لي: أعطني نصيبي من الساعتين التاليتين لأقضيهما معًا، ضحكت وقلت له: وأنا أستيقظ لك أربع ساعات؟! في هذه اللحظة مر علينا عمر أحمد، فوجدنا مستغرقَيْن في الضحك، وتعجّب ممن يضحك في تلك الظروف!!! ولما قصصت عليه ما حدث ضحك أكثر منا.

هكذا قضينا الليلة الأولى، أما الليلة الثانية فقد أدركنا أنه لا بد من حل بديل عن التناوب على تلك الكنبة التعيسة، صعدنا إلى أعلى السفينة، ووجدنا مساحة دائرية خالية من الناس، وسعدنا سعادة غامرة، وفرشنا عليها لننام، فجاءنا أحد أفراد طاقم السفينة، وقال محذراً: هذه المنطقة أسفل الرادار، والوجود تحتها خطر، قال علي فركو: وما الخطورة؟ رد: تفرز أشعة تسبب العقم. هنا ابتسم علي فركو، وقال لي: يا طارق، أنا عندي ولد واحد، وما عايز تاني، عايز أنوم، وأنت نازل تتزوج، خليني أرقد براحتي هههه، ولم أستجب له، ولا للرجل المحذر؛ لأن لذة النوم الحالية تطغى على كل تفكير لاحق، فنمت تحت الرادار، ونام علي، ولم يحدث شيء.

وصلنا ميناء «سواكن» ولم يكن جاهزاً لاستقبال ركاب بهذا العدد؛ لأن الميناء الأساسي كان بورتسودان، وكان من أفكار الإنقاذيين الجهلة تحويل ميناء الركاب لسواكن دون تأهيله،

قابلَنا أحد ضباط الجوازات بسوء أدب يتوافق مع سوء خدمات الميناء، وبتعامل فظ يتلاءم مع فظاظة منظر الميناء، رجل كارهٌ نفسه، قبل أن يكون كارهـًا للآخرين، لا يقدّر ظرفـًا، ولا يدرك أن هؤلاء عادوا من حرب، وهم الآن في وطنهم، ينبغي احترامهم واستقبالهم خير استقبال.

ولكن دائمـًا وسط تلك الظلامات تجد بصيص ضوء يعيد لك الأمل في الآخرين، ويحيي لديك موات الشعور، فجاء ضابط آخر وأنسانَا بحسن تعامله ما وجدناه من الأول.

وصلنا أرض الوطن، تنشقنا عبيره، ووطئنا ترابه، وكنا فرحين ومتوجسين، فرحين بالوصول، ومتوجسين من أن الرحلة لم تنته بعد، فبقي لنا مشوار آخر من الميناء إلى كسلا.

•كنا مجموعة من أساتذتنا الأجلاء، تتفاوت أعمارهم، وكان لدينا خياران: إما أن نذهب إلى بورتسودان، ونحجز في «أتوبيساتها» الفاخرة إلى كسلا لليوم التالي، وإما أن نمتطي أية دابة من سواكن تتجه بنا إلى كسلا، ومن فرط التعب وطول الرحلة، قررنا أن نبحث عن وسيلة توصلنا إلى كسلا، مهما كانت هذه الوسيلة.

ولأن عددنا كان كبيراً؛ إذ كنا ستة معلمين، فلم تتح لنا وسيلة مريحة، ولم نكن نريد أن نتفرق، طالما بدأنا رحلتنا من

أولها معـًا، يكفي من تخلفوا منا في الميناء؛ لعدم تمكنهم من استلام بقية حقائبهم، ومنهم علي فركو «رفيق الكنبة والرادار» وعماد...

وجدنا « لوري» سيتجه لكسلا بعد قليل، ولكن اللوري عليه بضاعة، فأركبنا كبارنا في الأمام جوار السائق، وتسنمنا رابية اللوري من الخلف جالسين عكس اتجاه السير: زهير وعمر وأنا. وتوكلنا على الله لنقطع المسافة البالغة خمس مئة كيلو متر على هذه الحالة.

لا غطاء ولا سقف، والطريق طويلة، والزاد قليل، والجلسة مرهقة، لكن خفة ظل زهير ولطف عمر، وروعة صحبتهما، خفف عنا وعثاء السفر وكآبة المنظر، وطوى لنا الأرض...

في الطريق تمر بنا جميع فصول السنة: حينا تهطل علينا الأمطار، لا حاجز بيننا وبينها غير ملابسنا، ثم تقطع السيارة مسافة، فيأتيك الغبار الذي يشاركنا المكان الضيق الذي بالكاد يكفينا، وتنتهبنا بعدها حرارة تلفح وجوهنا وأدبارنا.

•وصلنا كسلا ويا للحظ العاثر! فقد تجاوزت الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، وفي المدينة حظر تجول، لا يسمح بالدخول إلا صباحـًا، وقف بنا اللوري حسب أوامر جندي المرور في مدخل المدينة، وكنا ننظر إلى جبالها وأشجارها، ونكاد نسمع أصواتها، ولكن حيل بيننا وبين ما نشتهي، وكنا:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ
والماء فوق ظهورها محمول.

تبدو كسلا غير منتبهة، وكأنها لم تعلم بمجيئنا، ونخشى أن تكون غير مبالية بوصولنا، وغير مكترثة بقدومنا، وإلا لاستقبلتنا كما عودتنا سابقًا، فهي أم رؤوم، كيف لها أن تترك أبناءها الذين قطعوا كل تلك المسافة، ولاقوا ما لاقوا في سبيل الوصول إليها؟ كيف تتركهم يطرقون أبوابها، ولا تفتح؟!

طيورها تحوّم فوقنا، كأنها تغيظنا بأنها حرة، تتحرك كيف شاءت، ونحن نرى المدينة، ولكننا محجوبون عنها. وكان كل واحد منا يردد في سره: «الطير المهاجر» لصلاح، ويحمّل ذلك الطير رسالة لأهله.

بتنا ليلتها ليلة نابغية، وما أن تنفس الصبح حتى تنفسنا وانتفضنا واستجمعنا قوانا المنهارة، واتكأ كل منا على نفسه، وعلى الآخر، وجمعنا أشياءنا المبعثرة، وأنفسنا المرهقة، وما أن رأينا أهلنا وذوينا حتى زال كل ذلك التعب الذي أصابنا من تلك الرحلة التي لا تنسى.

رحم الله شقيقي خالد يسن، ورحم الله الأستاذ علي فركو، ورحم الله أستاذي أحمد محمد الحسن، وغفر لهم وجعل الجنة مثواهم.

سيدة الدراجة

- لا أدري مـــــــم أتعجب؟!
- من حرصها على البقاء في الحياة؟
- من صمـــــودها أمام الصعوبات؟
- من سعيها في طلـــــب رزقها؟
- من قدرتها الفائقة على التــوازن؟

يدهشنا العجب، حينما نرى لاعبي الجمباز أو السيرك وهم يقفزون، ولا يفقدون توازنهم، ويمشون على الحبال، ولا يسقطون، كل ذلك يفعلونه كسبًا للرزق، وطلبًا للشهرة، ولكن هذه السيدة وهي تحمل أنفسًا ومتاعًا وطعامًا، ورغم ذلك تسير متزنة! فعلت ما فعلت ليس للشهرة، وإنما سعيًا للحفاظ على الحياة.

أراها تحمل أسرتها كلها، ربما مات العائل، فترك لها هؤلاء لترعاهم، وتحمل متاعها كله، وأكاد أجزم أنها لم تترك من حطام الدنيا شيئًا خلفها، فكل ممتلكاتها في هذه الدراجة.

تسير متسقة مع حملها، ومتوازنة معه، تركز على الذي أمامها، وتتابع الذي خلفها، ولا تهمل الذي فوقها، مع عين مفتوحة على الطريق الوعر الذي لا يناسب الدراجة.

عجبي من ذلك الإصرار على الحياة، ومن تلك القوة، وتلك الروح التي تأبى الاستسلام، وتتمنع على الخنوع.

عجبي من ذلك الابتكار، فحاجتها كانت أم الاختراع.

سيمفونية الحزن والوفاء

●دراسة عن قصيدة «ودبادي» في رثاء «حميد»:

الرثاء أحد فنون الشعر العربي البارزة، ويتسم أكثر من غيره بصدق التجربة، وحرارة التعبير، ودقة التصوير.

قيل لأعرابي: ما بال مراثيكم أفضل شعركم؟ قال: لأننا نقول وأكبادنا تتقطع.

للرثاء ثلاثة أنواع: الندب والتأبين والتعزية.

الندب: بكاء النفس ساعة الاحتضار، وبكاء الأهل والأقارب، والأحباء وإخوة الفكر والاتجاه والمشرب، بل يمتد إلى رثاء العشيرة والوطن والدولة.

أما التأبين: فليس نواحاً ولا نشيجاً كالندب، بل هو تعداد الخصال، وإزجاء الثناء، وإنه تنويه وإشادة بشخصية لامعة، أو عزيز ذي منزلة في مجتمعه، ويكون تعبيراً عن حزن الجماعة على الفقيد أكثر منه تعبيراً فردياً عن ذلك.

والعزاء: هو في مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين. إذ هو وصول إلى ما وراء ظاهرة الموت وانتقال الراحل، وتأمل فكري في حقيقة الحياة والموت، ينطلق إلى آفاق فلسفية عميقة في معاني الوجود والعدم والخلود.

وتتجلى تلك الخصائص واضحة عندما يكون المرثي هو شاعر، فقدَه المجتمع بكل ما تحمل رسالة الشاعر من أهمية، وتكون أكثر ظهوراً وجلاء عندما يكون الشاعر المتوفى من طراز حميد، شاعر كان لسان قومه، وصوت من لا صوت له، تناول قضايا الفقراء والكادحين والعمال، وتصدى لظلم الحكام.

السودانيون كما قال الطيب صالح «يُحسنون الموت، ولا يحسنون الحياة»، فلا عجب إن وجدت شعر رثائهم أكثر اتقاداً.

أتناول في هذه الدراسة النقدية التحليلية قصيدة الشاعر الدكتور محمد بادي في رثاء الشاعر محمد الحسن سالم حميد. وسيكون جليـاً أنّ كل أنواع الرثاء الثلاثة سابقة الذكر اجتمعت في تلك القصيدة.

عندما يرثي شاعرٌ شاعراً، وصديقٌ صديقه، تتجلى أبهى مشاعر الصدق والروعة والإخلاص، وتبرز عاطفة الحزن، ويظهر خلق الوفاء، وتجد الدهشة تسيطر عليك؛ إذ تستلب القصيدة المتلقي في كل مراحلها.

رغم غلبة الشعر الفكاهي والساخر على شعر ودبادي، لكنه أبدع أيما إبداع في شعر الرثاء الذي تجلى ظاهراً في رثائه للشاعر إسماعيل حسن، وفي هذه القصيدة موضع الدراسة في

رثاء الشاعر حميد.

تُفاجِئنا القصيدة المرثية الرائعة ببدايتها غير المعتادة؛ إذ يذكر في مقدمتها أن حميداً كأنه اختار وقت موته؛ لأنه وجد صعوبة في قبول الباطل بعدما تغيرت المفاهيم، وضاعت الحقوق التي كان يدافع عنها، وبعدما فشا الباطل، وانتشر الظلم:

بعد نشفت عروق النيل
وجفت وردة الأحلام
بعد مات الأمل مخنوق
وضاع واتنكّست أعلام
بعد غابت شموس الحق
وخيّم فوق دروبنا ظلام
بعد أصبح كلامنا الفيها
أي كـــــــــلام
نفض إيدك بقيت مارق
عرفت الحال صبح مايل.

•نقطة الاختيار هنا هي: «**نفض إيدك بقيت مارق**»، ويقول ود بادي في توصيف الموت مخاطباً حميد:

ترى اتفكفكت من وحل البدن والطين.

لأنه شاعر يسمو بروحه إلى فضاءات عليا، ولا يرضى أن يكون سجين البدن، ولا أريد هنا أن أخوض في جدلية البدن والروح، ولكن أود التأكيد على أن حميداً حمل وطنه، وأرضه، ومحبيه، وحلق بهم عالياً، ويبدو ذلك في كلمات توحي بالارتحال، انتظمت النص منها:

الساري السماء الصحراء النيل سايق الخطوة لا قدام تسافر المركب...

ثمة جملة محورية تكررت بعد نهاية كل مشهد وصفي، يذيِّل بها كل مقطع شعري، ويغيّر الشاعر فيها كلمة واحدة بما يتلاءم مع المشهد، وُيبقي على البقية:

سلام يا حامل الأختام

عجيب يا حامل الأختام

حرام يا حامل الأختام.

مات حميد ولم يقل كل ما لديه، مات حميد ولم يمت الكلام، مات حميد، وكان محبوه ينتظرون منه أن يرووا ظمأهم من قوله:

لسع ما شبعنا كلام.

وكذلك:

ولسع لينا عندك فيها

باقي قصيد وباقي نشيد

وباقي سلام وباقي كلام.

قرر المغادرة لأنه يملك نفساً أبية، لم يستطع التكيف مع «الحال المايل»:

أبيت ما تخوض مع الخايضين
وأبيت ما تبيع كـــذا البايعين
وأبيت ما ترهن الأقـــــلام.

مات حميد، وكان تأثير صدى موته لدى محبيه ومبغضيه مختلفاً، في توصيف بديع ذكره ود بادي، فكان الفريق الأول:

أولاد الشمش ألا بن عم لا خـــــــال
ملح الأرض والعدام رهاف الحـــــال
والمتعففين بالمافي داخرين العفاف راس مال.

- أما الفريق الثاني:

الناس الضياهم رااااح
والناس الضميرم غاب
البايعين غــلاوة النيل
والخاربين بلدنا خراب.

حمل حميد هموم الفريق الأول: «أولاد الشمش» الذين لا ينتسبون لحميد بنسب ولا قرابة، وإنما فقط آمن بقضيتهم، يعانون من الفقر والجوع والمرض والتشرد، فيسأله ود بادي

متعجبـًا: لمـن تتركهـم في ظل تلك المعانـاة التي تحيـط بهـم؟! وأنت أدرى بها!!:

يا حميد تسيبم كـيف؟

وعارف قسوة الأيـــام

ويا حميد تسيبم كيف؟

وعارف شهوة الظــلام

ويا حميد تسيبم كيف؟

وعارف لعنة الحــكام.

فرح الفريـق الثـاني لوفـاة حميـد، رغـم أنهـم أظهـروا الحـزن كذبـًا ورياء ونفاقـًا، لكـن دواخلهـم كانـت سـعيدة، وبـدا هـذا في الصورة المتناقضة لهم التي رسمها ود بادي:

ديل باكين مع البكاي

وفرحانين ورا الأبواب.

مـاذا يمتلـك الشـاعر غيـر صـوت وقلـم؟ لا شـيء، هنـا فـرح الفريق الثاني:

وقالوا: ارتحنا من صوتك!

لكن يقرر لهم ود بادى استحالة استكمال فرحتهم:

لكن رجاهم خاب.

لأن صـوت حميـد موجود أنـى اتجهوا، فحيثمـا توجهت تجد تأثيـره كامنـًا، تجـده في البلـد، ووتـر الغنـا، وفي القلـوب، وفي

النباتات، وفي السواقي، وحكايات الناس، والسكة الحديد، وزيت الماكينات، وفي حلوق الفقراء، و....

ثم يذكر تأثير صوته وأهميته:

صوتك كان لقيمة وزاد
وكُت للجايع الممكون
صوتك لمة التربال وفي
صوت المتر مدفون
يبلل في صحاري الصيف
لهات الجالب العطرون
والكايس الهوا البارد
تحت الزنكي والجملون
صوتك في البريد عناي
يدوزن في غناوي الكون.

أما قلم الشاعر، وهو الذي استخدمه لنصرة المظلوم، والتعبير عن أشواق الفقراء، فتبدو رمزيته هنا جلية:

سَنين قلمك بديقات ابنعوف
الكاسر الكِشّيف.

يستخدم قلمه في ردع الظالم:

وأنت مخوي نص الليل مباري القيف
حارس النيل وتطعن في

تمـــــاسيح الـــــزمن والزيف.

ثم تعرج القصيدة لتتناول ثنائي خالد في العقل الجمعي للسودانيين، جمعهما الهم المشترك، وحب الفقراء، والدفاع عنهم، وعشق الوطن، ثنائي لو لم يقدم للمتلقي السوداني سوى «عم عبد الرحيم» سيمفونية الفقر والحب والعذاب لكفى:

زمـانك ومصطفى الألحان
زمن كانت بحورنا تساب
تغزل من قطننا حـــروف
وينسج للـبلد جـلبـاب
مواويلكم لهيب النـــار
وليهن في الشموس انساب
نيازك في الفضا طاشـــات
بين نوري العليها النـــور
وبين الشـــعلة ود سلفاب
نيازك في حشـــاها سموم
تجيك بي فوق تحوم وتحوم
تفج الليل وترجم في شياطين
الكـــــــــراسي الشوم
تتاوق لي بويتات الغبش بالنور

وتحرق لي بيوت اللعنة في الخرطوم
شـــــــواظ من نار على الظُّلّام
وبـــــــــرداً للضعيف وسلام.

فكانت إبداعاتهما برداً وسلامة للضعيف، وجلباباً للوطن، ونيازك وشواظ على الظَلَمة.

كان حميد زاهداً ورعاً تقياً نقياً، وصفه ود بادي في هذا النص:

كنت عفيف وكنت شفيف.

وكذلك:

كنت سجين وكنت حزين.

رأى ود بادي وهذه حقيقة أن حميداً ترك قصائد لها تأثيرها الممتد، بما تحمله من طاقة إيجابية في نفوس الناس، وبما تكتنزه من مشاعر الصدق والوفاء لهذا الشعب:

غنيواتك بنات الـــــــــريف
دعاش النـــسمة في الـــــوبان
رغيف القمحة والعيش ريـــــف
غنيواتك جـــــــناح ورهيف
وللبايتين قوى كسرة وملاح ورغيف.

كان حميد عنيداً لا يقبل الباطل، ولا يرضى الظلم، حمل هم الدفاع عن الوطن والفلاح والعامل والفقير والمسكين

والضعيف، ولاقى من جراء ذلك ما لاقى من صنوف الظلم، كان مدافعاً عن قضية الوطن والمواطن، عاش مقاوماً مصادماً، يجيد السباحة ضد التيار دون كلل وبلا ملل طالما أنها في مصلحة الوطن:

معاكس الموج وضارباك الرياح الـــــهوج
والمركب تلوج وتلوج وتدفر فيها لا قـــدام
لا كلّيت ولا ملّيت ولا اتمدّيت ولا انجمّيت
وتـــــــدفر فيها لا قـــدام ولا قدام.

فكانت النهاية المفجعة:

وتدفر فيها لا من شالك الهدام.

فقد مات حميد رحمه الله في حادث سير في الطريق من نوري إلى الخرطوم.

لم تخلُ مرثية ود بادي من تأثيرات النزعة الصوفية، فأفرد لها مقطعاً جميلاً، جعل من حميد شيخ طريقة، يقود أتباعه ومريديه، ويتأثرون به:

مجاذيب الحروف أشواق
وغرقانين يـــلاهوبك
مسيدك في البعيد ضواي
مصوبر فـــيهو لالوبك
وأنت تنادي بالحضرات
تغرف وتسقي من كوبك.

إذ زخر المقطع بعدد من الكلمات الحصرية لدى الصوفية: «مجاذيب، لالوب، كوب، حضرة، مسيد، غرقانين...».

وهم يسترشدون به، وهو القائد الرحيم:

تقطّعُن البحور بشـويش

وماسكين في طريف توبك.

في هذه المرثية يبدو التناص واضحاً بين ودبادي والحطيئة فيما يلي:

- يقول ودبادي:

والطاوين على فـد لقمة

كمت أيـــــــام.

ويقول الحطيئة:

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل

ببيداء لم يعرف بها ساكن رسماً.

وأرى أن ودبادي تفوق على الحطيئة؛ لأن الحطيئة حصر مدة الجوع هنا في ثلاثة أيام «وطاوي ثلاث»، بينما هي عند ود بادي ممتدة وغير محددة «كمت أيام».

وصورة ودبادي أدْعَى للتعاطف والاستغراب؛ لأن الطوى والجوع وسط العشيرة أمر عجب، ولكن لدى الحطيئة ففي بيداء، وهذا شيء طبيعي.

يتناص ود بادي مع نفسه في قصيدتين: في رثاء إسماعيل حسن وفي رثاء حميد، حيث قال في رثاء إسماعيل حسن :

ارمي الدمعة فوق الدمعتين يا عين

بعد الليلة حابساها الدموع لي مين؟

عجيب يا هودج الأحزان

مواسم الهجرة ما حانت، ولا زمن الرحيل قد حان.

والتناص بين النصين موجود بين: عجيب يا حامل الأختام «في رثاء حميد»، وعجيب يا هودج الأحزان «في رثاء إسماعيل حسن».

كذلك في مواسم الهجرة ما حانت «في رثاء إسماعيل حسن»، وتسافر في جناح الشوق ولسع ما شبعنا كلام «في رثاء حميد».

وغيرها كثير جداً بين المرثيتين.

يمتد التناص بين جميع من رثوا حميد «القدال، ودبادي، أزهري...» حيث اتفقوا جميعهم على سرعة الرحيل، واتفقوا على أن هناك كلاماً كثيراً في جعبة حميد لم يُقل بعد، وهناك كثير من الحزن الذي خلفه رحيله.

- يقول القدال في مطلع مرثيته:

يا حميد أقيف شوف الخلوق محنانة.

هو المعنى نفسه الذي ذكره ودبادي هنا:

تسافر فوق جناح الشوق

ولسع ما شبعنا كـــلام.

كذلك:

غافلت البلد جملة.

وللطبيعة ومفرداتها وجود كبير في هذه القصيدة؛ ولا عجب فحميد ابن الطبيعة، ابن نوري، ابن نهر النيل، فلا بد أن تجد كلمات مثل:

الصحراء النيل نسايم التمساح الريف السما دعاش أنسام الَمَتر الربيع أزاهر...

كلمات القصيدة موحية، وتراكيبها بها ظلال، وموغلة في تعدد التفسيرات، وتباين الشروحات، رغم سهولتها، ونجح ودبادي ببراعة في توظيف كلمة «ديالكتيك» رغم عجمتها، وصعوبتها بشكل سلس لا تحس أنها نشاز أبداً، فكانت ملائمة؛ لانتظامها في سياق الحديث عن بنات الجامعة.

وتبرز إيحاءات الكلمات وظلالها في المقطع الذي تحدث فيه عن حميد ومصطفى؛ حيث شبه أعمالهما الفنية بالنيازك واللهيب؛ لذا كان لا بد من وجود كلمات تلائم ذلك، مثل: تشلع بروق تضوي تحرق شموس شعلة النور ترجم...

تزخر القصيدة بالصور الشعرية بنوعيها: القصيرة والممتدة،

كما تكتنز في ثناياها كثيراً من الجوانب البديعية.

●من الصور الشعرية القصيرة:

تتاوق لي بويتات الغبش بالنـــور

وتحرق لي بيوت اللعنة في الخرطوم.

هي قصائد حميد نفسها، لكن تأثيرها يختلف على كل فريق من الفريقين اللذَين ذكرتهما سابقًا؛ إذ تنير هنا وتحرق هناك!!!

الاستعارة في: جناح الشوق حارس مشرع الأوطان تطفي مصابيح الشعر ما شبعنا كلام نغزل من قطننا حروف...

التشبيه في: **مواويلكم لهيب النار، نيازك، شواظ.**

سنين قلمك بديقات أبنعوف؛ إذ شبه قلمه في حدته بالبديقات، وهو ذلك الخشب المسنون الحاد.

الكناية في: أولاد الشمش تماسيح الزمن والزيف خليت المدينة حطام.

ومن أجمل الصور الممتدة وأبرزها: ذلك المقطع الذي يتحدث فيه عن قصائد حميد؛ إذ شبه «غنيواته» بأنها: بنات الريف ودعاش النسمة ورغيف القمحة وجناح ورهيف... المشبه واحد مع تعدد المشبه به.

كذلك المقطع الذي وصف فيه تأثير الأعمال التي كانت نتيجة للتعاون بين حميد ومصطفى.

●ومن جوانب البديع:

الجناس في: لا كليت ولا مليت سلام وكلام...

والطباق في: باكين وفرحانين وضياهم وظلام.

ومن جوانب البلاغة التي وظفها ودبادي بشكل رائع هو القصر المتمثل في تقديم ما حقه التأخير بغرض الاختصاص والاهتمام به، وذلك في:

سنين قلمك وتسيبم كيف.

يعد المكان بطلاً من أبطال هذه المرثية، فقد تجلت عبقريته في غير موضع : نوري «موطن حميد» ود سلفاب «موطن مصطفى سيد أحمد» التمتام اليمن الشام...

هكذا طفت في جوانب هذه القصيدة الغنية، ولا أقول غصت، فما زلت في شاطئها واقفـًا حيرانـًا، ففيها من الكلام الكثير الذي يمكن أن يقال.

***

حينما ينكسر الجناح الآخر

سئل أحدهم عن موت الأخ؛ فقال: قصّ جناح، وها أنا الآن قد قُصَّ جناحي، وسبقه قبل سنوات جناحٌ قُصَّ أيضًا، فبالله عليكم كيف لطائر أن يحلق، وقد قُصَّ جناحاه؟!

كأنَّ والدَيَّ رحمهما الله عندما أسمياه «بشرى»، يعلمان أنه سيكون «بشرى» لنا، ولتطمئن به قلوبنا.

توفي أبي، وكان قَدَرُ «بشرى» أن يكون الأكبر بيننا، فتحمّل المسؤولية، ونهض بالعبء مع أمي، ورفع جبهته للشمس، وتلقى ضوءها، واستمد منه طاقة، تعينه على الصمود، وعلى أداء الرسالة، وهي رعاية إخوته الذين تيتموا، وقد شدَّ الله عضدنا به، فكان أبًا وأخًا أكبر حقيقة.

بعد أن كبرنا، وتفرقت بنا السبل، وشط بنا النوى؛ سعيًا وراء أرزاقنا، وعندما كنا نعود للديار في إجازاتنا، تجده يتفقدنا، ويتعهد أماكن نومنا، وأوقات أكلنا وشربنا، وكان يأتي لنا بالطعام والشراب إلى أماكننا، يحمله بنفسه، وهو أكبرنا.

كان حمامة مسجد، لا يتأخر عن صلاة، ولا يتوانى عن فرض، تجده في كل أتراح المدينة وأفراحها، مشاركًا ومشاطراً

وداعمـاً ومحفزاً؛ فقد امتد فضله للجميع؛ فكم من أرملة ستفتقده؛ لأنه كان يتفقدها، ويقوم بخدمتها، وتلبية احتياجاتها، وكم من يتيم سيعاني بعده؛ لأنه كان أبـاً له، يعينه، ويساعده، ويدبر شؤونه، ويدير أموره، وكم من أسرة ستذكره؛ لأنه كان سبباً في استقرارها.

سيفتقده الأهل جميعـاً، فكان يسافر إلى كل البقاع لحضور زواج أو شهود عزاء أو عيادة مريض، وكان يحمل الكَلَّ، ويعين المحتاج، ويساعد المسكين، ويهدي الحائر، ويرشد الضال، كان أخاً لأترابه، وأباً للصغير، وابناً للكبير.

كنت أدرك أنه لن يبقى كثيراً بعد وفاة الوالدة، فقد كان شريكها في تربيتنا، ومساعدها في تدبير أمورنا بعد وفاة الوالد، كان ملازمـاً لها، وكان حزنه على فراقها لا يضاهيه حزن، فكان أوّلَنا لحاقاً بها، فاجتمعت روحاهما سريعاً.

تعلمنا منه الرجولة في أسمى معانيها، فكنتُ وأنا صغير أقلده في أشياء كثيرة؛ لأنه كان أنيقـاً نظيفـاً شهمـاً شجاعاً كريماً.

كان ونحن صغار يهتم بتهذيبنا، وتربيتنا، ويقف على أمور دراستنا، ويتابع ذلك، ويهتم بتفاصيل تعليمنا، ويقسو علينا إن أهملنا دروسنا أو أخطأنا، وكان يقسو قسوة باطنها فيه الرحمة:

نقسو ليزدجروا ومن يكُ حازمـاً فليقسُ أحيانـاً على من

يرحم.

كان مهاب الجانب، يكفي إطلالته من بعيد في بداية الطريق، ليعتدل المتكئ، ويقف الجالس، ويهدأ الهائج، ويكف الضاحك، ليس لظلم منه، وإنما لمهابة غرسها الله في قلوب الآخرين تجاهه.

كان لا يأكل إلا قليلاً، ولا ينام إلا يسيراً، ولا يتكلم إلا نزراً، كان صبوراً حتى عجز الصبر عن صبره، لم يئن ولم يكل ولم يمل، حتى في أحلك الظروف، وأشد الأزمات، وأفظع الآلام.

دم بخير أخي، فأنت سعيد الآن برفقتك والديك وأخيك، ولكن الفاجعة لدينا كبيرة؛ فمكانك لا يشغله أحد، وصدعُ فراقك لن يُرأب، وثغرٌ أنت سددتَه طويلاً، سيظل مكشوفًا كثيراً.

توفي، وعمره ثلاثة وستون عامًا، وهكذا كان نبينا صلى الله عليه وسلم، وهكذا كان أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم، اللهم كما اشترك معهم في عمر الوفاة، فأشركه معهم في المنزلة والجوار في جناتك.

سلام عليك أخي الأكبر وأبي الثاني.

***

غفوة على ظهر حمار

•نامي صغيرتي

لم يتحمل جسدك النحيل مشقة البحث عن المياه.

إذ لو وُجد العدل في هذه الدنيا، لكان من الأوْلى أن يوفروها لك داخل بيتك، وكان من الأولى أن تكوني الآن على مقعد الدراسة، وليس على ظهر حمار.

لم يقو ظهرك على أن ينتصب قائماً، فخَرَّ مغشياً، فتلقّفه ظهر الحمار؛ ليكون متكَأً لك ومرقداً، حينما عز المتكأ، وعسُر المرقد.

هذا الحمار الآن أرأف بك منهم، وأشفق عليك منهم.

طالما أنت على ظهره، فإني على ثقة أنه لن ينهق، ولن يجفل؛ كي تنالي القسط الكافي من الراحة.

•نامي صغيرتي

لعل الله غشّاك النعاس أمَنةً منه، ومنحك غفوة قليلة، تمكّنك من استجماع طاقتك، ولملمة قواك، لتكملي مشوار البحث المضني عن ماء.

•نامي صغيرتي

طالما ليل الظلم ما زال مخيماً، فكل شيء عرضة للسرقة، حتى وقت نومك سرقوه، وما نقص من حق مسكين شيء إلا كان زائداً مع ظالم.

•نامي صغيرتي

فنومك على ظهر الحمار دليل نقائك، وسلامة صدرك، **وبراءتك؛ لأن كثيرين لا يأتيهم النوم وهم على النمارق والفُرُش والسرر.**

***

قصة لغة

•نهضت مبكرة قبل أخواتها، رغم أنها كبراهنّ، لكنها استمرأت النشاط والحيوية، كما استمرأت الأخريات الكسل والخمول.

كانت جميلة رقيقة فعالة، وكنّ غير ذلك، كانت لا تتردد في تلبية كل الطلبات، وتقدم كل الخدمات، وتوفر كل الاحتياجات، لها قدرة بالغة على التطور، واستيعاب كل جديد؛ وذلك بما آتاها الله من قدرات عظيمة، وإمكانات واسعة.

نهضت، وتجولت في القرية، فراعها ما شاهدت؛ إذ لم تجد ذِكراً لها رغم كل ما تفعله، ولم تجد شكراً لها رغم كل ما قامت، وتقوم به، فنسيها الكثيرون أو تناسوها، ورأوا أنها ذكرى من الماضي، ينبغي تغييرها، فهم يرون أنها تناسب الرجعيين والمتخلفين.

رأت أن الكثيرين يذكرون أخواتها، ويفخرون بمعرفتهن، ويرون أنهن أفضل وأجمل وأرقى منها، ويسعون للقرب منهن، ويتجاهلونها.

وفي أثناء تجوالها في القرية والألم يعتصرها لمحت من بعيد شيخًا وقوراً، وخط الشيب لحيته الكثة، اقتربت منه، وجلست بجواره، وانتظرت إلى أن فرغ من صلاته، وقرأ أذكاره، وانتهى

من دعائه، سلمت عليه، فرد عليها السلام، بادرها قائلاً:

مالي أراك يا بنيتي تحملين همّـًا تنوء به الجبال؟!

ردت عليه: يا شيخ، أنا أكبر أخواتي، وأفضلهن، وأكثرهن فائدة، ورغم ذلك أرى الكثيرين يفضلونهن عليّ، ويذكرونهن ولا يذكرونني، ويفخرون بمعرفتهن، ويتجنبونني.

أصغى إليها الشيخ باهتمام بالغ، وقال لها:

لا عليك يا بنيتي، فأنتِ محفوظة بأمر الله، فحِفظُك من حِفْظِ القرآن، ألم تسمعي قوله تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) الحجر: ٩؟ حَفِظَ اللهُ القرآنَ، ومن حِفظِه للقرآن حَفِظَ اللغة العربية.

هنا هدأ روعها، ونزلت عليها السكينة، وغشيتها الطمأنينة، وارتاح بالها، وسكت غضبها.

نعم..

مهما حاول بعضهم إضعاف اللغة العربية، فستظل قوية، ومهما سعوا لتعلم غيرها فسيعودون إليها؛ لأنها تضم أكثر من اثني عشرة مليون كلمة، فهل تستوي هي والإنجليزية التي تحتوي على ست مئة ألف كلمة فقط؟! والفرنسية التي بها مئة وخمسون ألف فقط؟!

قامت من عند الشيخ، وهي فخورة وفرِحة، تردد مطمئنة:

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون).

عن صديقي أحدثكم

•لكل علاقة تاريخ ميلاد، بدأتْ فيه، ولكنني أجافي الحقيقة، وأجانب الصواب، إنْ قلتُ: إنّ ما بيننا من صلة بدأ في تاريخ محدد، فقد فتحت عينيّ، وأنا معه، وهو كذلك، كنا توأمًا، وُلِد أحدنا في بيت، والآخر ولد في بيت غيره.

كان بيته بيتي، وبيتي بيته، إن كنت عنده أو كان عندي، فالأمر سيان، فكأنك تنقلت من غرفة لأخرى، داخل البيت نفسه.

أكاد أزعم أنني سبرت غور الحياة، بعد ذلك العمر الطويل، وبعد تلك الخبرات التي اكتسبتها، وتلك الغربة التي خضتها، فأكاد أجزم أنني ما رأيت أحداً يضاهيه كرمًا، أو يقاربه إخلاصًا، أو يدانيه صدقًا، كان محبًا للخير لدرجة أن فعله للخير أحيانًا يكون مضراً به، ولكنه لا يبالي، يسير بين الناس جابراً خواطرهم، إذا مرت به نِعَمٌ أو أصابته نقمٌ، في حال عاش سعادة أو واجه شقاء، إن كان في رغد عيش أو شظفه، يظل مهتمًا بأمر الفقير، ومغتمًا لأمر المحتاج. وحالته واحدة لا تتغير:

وحالات الزمان عليك شتى وحالك واحد في كل حال.

يدعو بالخير للناس، أكثر من نفسه، وفلسفته في ذلك: إن أصاب الخيرُ الآخرين فسيأتيني منه شيء.

كان يقضي معي الساعات في بيتي، وحين يسأل عنه والداه، فيعلمون أنه معي، تطمئن نفوسهم، وأنا كذلك، كنت أقضي في داره الساعات، فحين يعلم ذويّي ذلك، ترتاح أنفسهم. كان والداي رحمهما الله يعاملانه على أنه شقيقي، وليس صديقي فقط، وكذلك كان والداه يريان ذلك، رحم الله أباه، وأطال عمر أمه.

عرفته صادقًا مخلصًا نبيلاً شهمًا كريمًا، كتومًا لسر صاحبه، كل صفة يحتاجها الصديق في صديقه، تجدها متأصلة فيه، وكل خصلة تزيّن جِيد الصحبة، تراها كائنة فيه، فهو الذي يعطي الدنيا خيريتها، لأنها بدون ذلك لا خير فيها:

ولا خير في الدنيا إذا لم يكن بها صديق صدوق صادق الوعد منصفًا.

شط بنا النوى كثيراً، وتفرقت بنا السبل مراراً، ولكن لم ينقطع التواصل بيننا قط، فكثير من الصداقات تنقطع حينًا، وتفتر أحيانًا، وفي أحايين كثيرة تضل بوصلة الصداقة؛ فلا تعين أحدهما على تحديد موقع الآخر، ولا تتبين مكانه. ولكن ذلك لم يحدث لنا.

وعلى كثرة ما لديّ من أصدقاء مميزين؛ أفخر بهم، وأباهي، وأشرُف، كان هو الوحيد الذي لم توجد في جدار صداقتنا فجوة للغياب أو مساحة للنسيان، كان دائماً حاضراً معي، وكنت دائماً حاضراً معه، لا توجد فترة انقطعت فيها العلاقة، أو انزوى فيها التواصل، أو قل فيها التلاقي، حتى لو بعدت الأجسام مكانياً، فإن الحميمة كانت حاضرة، كنت دائماً أعرف مكانه، وكان دائماً يعرف مكاني.

تنقلت كثيراً، وكذلك هو، ولكن كانت تفاصيلنا واضحة لبعضنا، ولم يُخفِ هو شيئاً عني، ولم أغيّب أنا أمراً عنه.

إنه شامة في خد الصداقات، وعلامة في مفرق الصلات، لم يغيّره كرُّ الغداة، ولم يبدّله مرُّ العشِيّ، كلما تقدم عمر صداقتنا صقلتها الأيام، وأورت زندها، وزادتها صلابة، وأكسبتها متانة.

لم يكن يتعامل مع العلاقات بالتكافؤ، فهو واصل، وليس مكافئاً، يبادر دائماً، ويسبق ويتقدم، ويتفقد، ويتصل، ويسأل، ولا ينتظر من صديقه بالمثل.

ما رأيته يوماً يحمل هَمّ شيء من تكاليف الحياة، ولم يسأم من الصمود في وجه تيارات الدنيا التي تتقاذف الناس يمنة ويسرة، ما رأيته ردّ سائلاً، ولا نهَر محتاجاً، ولا قهر مسكيناً، ولا قسا على فقير، كان كريماً سخياً باذلاً معطاء:

ولـو لـم يكـن في كفـه غيـر روحـه

لجـاد بهـــــــا، فليتـق الله سـائله.

علمته محبـاً لوطنه، مشفقـاً على أهله، وصـولاً للرحـم، حانيـاً على النـاس، عطوفـاً على الكبار، رفيقـاً بالأطفـال، أمينـاً على مـا تحـت يـده، عمـل في مواقـع توافـر لـه فيهـا كل السـلطة، وكل النفوذ، ولكنه كان أمينـاً نزيهـاً، نظيف اليد، عفيف الجيب.

يـرى المعـروف الـذي تسـديه لـه جبلاً، وهـو لا يُحسـب مـع معروفـه الـذي أسـداه لنـا، ولكـن هكـذا النفـوس الكبيـرة التـي أتعبت الأجسام معها، فلم تقوَ على احتوائها:

وإذا كانـــــــت النفـوس كبـاراً

تعبـت فـــــي مرادهـا الأجسـام.

نـال مـن الدرجـات العلميـة أرفعهـا، وبلـغ مـن المناصـب الرسـمية أعلاهـا، فمـا زاده ذلـك إلا تواضعـاً، و مـا ترفـع ولا تكبر.

كنـت دائمـاً أجـد أن أنفسـنا قـد تماهـت معـاً، وأفكارنـا قـد تلاقحـت، ووجهـات النظـر قـد تطابقـت، فـلا عجـب، فقـد كنـا نغـرف من المعين نفسـه، ونسـتقي مـن المنهل ذاته، فكلانا يسـقى بماء واحد.

فهنيئـًـا لـي بصديـق مثله، يواسـي ويعيـن ويهتم، فهـو من ذوي المـروءة الذيـن تجدهـم حيـن تضيق بـك الدنيا؛ فتبحـث عن ملاذ آمن؛ لتفضفض أو تشتكي:

فـلا بـد مـن شـكوى إلـى ذي مـروءة

يواسـيك أو يسـليك أو يتوجـع.

عن شقيقي أحدثكم..

عـن «صـلاح» كمـا أحـب أن أناديـه باسـمه غيـر الرسـمي أحدثكم..

عن عثمان دفع الله أحدثكم..

الحل في الثورة الثقافية

الثورة الثقافية هي الثورة الوحيدة القادرة على إحداث تغيير جذري وشامل، وهي وحدها القادرة على تعديل سلوك الأمة كلها.

ومختصر ما يمكن إيراده من مجموع تعريفات «الثقافة» المتعددة، ما يلي:

●سلوك اجتماعي، ومعيار موجود في المجتمعات البشرية؛ إذ تعدّ الثقافة مفهوماً مركزياً في الأنثروبولوجيا، وتشمل الثقافة نطاق الظواهر التي تنتقل من خلال التعلم الاجتماعي، وتحتوي على الآداب والفنون والعلوم والممارسات اليومية...

●تقوم الثورة الثقافية إذا كان الشعب يتمتع بمعرفة وفكر، ووظف تلك المعرفة وذاك الفكر في سلوكه، وعلّم كل فرد من المجتمع الأفراد الآخرين، وأخذ بيدهم، ورفع من شأنهم، وأخذ على يد الذي يريد أن يحط من شأن المجتمع، وأعاد مَن خرج مِن المنظومة.

➢يبدأ ذلك بدائرة ضيقة جداً في محيط كل فرد، ولتكن أسرته أو أصدقائه، ثم تتسع لتشمل الأسرة الممتدة، وزملاء العمل أو

الدراسة، ثم تتسع لتشمل القبيلة، وتتسع أكثر لتشمل مجتمع القرية أو مجتمع المدينة.

➢ولو حدث ذلك التمدد الثقافي في المجتمعات لانتظم البلد بأسره، وساعتئذٍ يقف الوطن على أرض صلبة، وبقدمين راسختين، لأنه نجح في التغيير السياسي والثقافي معـًا، وامتلك طائر الوطن جناحين قويين قادرين على التحليق به.

➢لو كانت معظم الثورات السياسية بحاجة إلى قائد، حتى لو كان هذا القائد شخصية اعتبارية أو معنوية، وليس فرداً محدداً؛ فإن الثورات الثقافية ليست بحاجة لقائد؛ فالمجتمع كله قائد؛ لأن كل فرد من أفراده يقوم بدوره في إطاره الخاص به كما أسلفت.

➢للثورات الثقافية فوائد عظمى، منها: رفع مستوى الوعي لدى المجتمع؛ إذ تعمل على وأد الجهل الذي هو عدو للتطور، ومفسد للنجاحات، وكذلك تنمية الحس القومي في كل فرد؛ مما يدفعه للمحافظة على ممتلكات وطنه المادية، ومكتسباته المعنوية، ومن فوائدها أيضـًا: إعطاء إكسير الحياة للثورة السياسية، ومنحها شهادة بقاء، لا يعقبها فناء.

➢تكثر القبائل في السودان، وتتعدد العرقيات واللغات واللهجات والديانات، وهذا تنوع مثمر، إذا كان تحت مظلة الثورة الثقافية، فلكل جانب من تلك الجوانب دوره الذي

يضطلع به في خدمة الثورة الثقافية التي تؤدي إلى تغيير فكري وأنثروبولوجي.

- ولكنه قد يكون تنوعـاً مدمراً، إن فشلت الثورة الثقافية في استثماره، وحلت محله العنصرية المقيتة.

- ينبغي على كل أفراد المجتمع تحمل المسؤولية للنهوض بهذا الوطن، كلٌّ في مجاله، كلٌّ يغير من نفسه، ثم ينطلق لتغيير ما حوله في حملة وطنية لنشر الثورة الثقافية، فحالنا لا يسر، وترتيبنا في قائمة الدول والشعوب يبعث على الخزي، رحم الله شاعرنا الكبير محمد سعيد العباسي حين قال:

فلو درى القوم بالسودان أين هـــمُو

من الشعـوب قَضَوْا حزنـاً وإشفاقـــا

جهـلٌ وفقـرٌ وأحــزابٌ تعـيثُ بـــه

هـدَّتْ قـوى الصَّـبر إرعــادًا وإبراقـا

بيتان من قصيدة له بعنوان «يوم التعليم» نظمها في النصف الأول من القرن الماضي، فما عساه أن يقول إن رآنا الآن؟!

فلا نستهين بأمر الثقافة، فقد تكون أمضى من السلاح وأقوى، فقد حمل لنا التاريخ القديم ما يعضد ذلك، فقد خاضت اليونان وروما القديمة حروباً، انتصرت فيها روما عسكرياً، لكن انتصرت اليونان ثقافياً؛ إذ كان للثقافة اليونانية

الكلاسيكية، تأثير قوي على روما القديمة، التي حملت نسخة منها إلى أجزاء كثيرة من دول حوض البحر الأبيض المتوسط وأوروبا.

➢ ولو دققنا في سلوك دول الاحتلال ولا أقول «استعمار»، لأن كلمة «استعمار» من التعمير، وحاشا للمحتل أن يعمّر، وإنما هو مصطلح وضعه المحتلون حتى تتقبلهم الشعوب حينما كانت تفكر في احتلال بلد ما، فإنها تدرس ثقافة ذلك البلد، وتتعرف على سلوك شعبه، ومن ثَم يسهل لها احتلاله، فيكون الغزو الثقافي قبل الغزو العسكري، وقد يخرج المحتل من أرض ما، ولكن تبقى ثقافته مسيطرة على ذلك الشعب عقوداً طويلة.

➢ الثورة الثقافية تؤدي إلى صنع مؤسسات للحكم، وتعمل على تكوين مجتمعات مؤهلة لتقبل الرأي الآخر، واحترام الاختلاف، وتمكّن الدولة بمؤسساتها من وضع الخطط التكتيكية والاستراتيجية بكل إتقان، وتنفيذها بكل نجاح؛ لأن وجود مجتمع ناجح ثقافياً يمكّن الدولة من فعل ذلك.

➢ فدولة المؤسسات تتميز بالمنهجية، واتساع الرؤية، وعدم التأثر بالأهواء الشخصية والآراء الفردية، وكذلك تتميز بديمومة العمل، واستمرارية النجاح؛ لأن العمل في دولة المؤسسات لا يتقيد بالفرد؛ لأن الفرد يكمل عمل من سبقه،

فالأمر يبدو كحلقة متسلسلة، لا ينسف أحد جهد أحد، وإنما يتمم عليه لتنهض المجتمعات، وتتطور الدول.

➢تنجح الثورة الثقافية حين يعرف كل مواطن واجباته، ويؤديها بالدقة نفسها التي يطالب فيها بحقوقه، تنجح حين يحافظ المواطن على الممتلكات العامة كما يحافظ على ممتلكاته الخاصة.

➢تنجح الثورة الثقافية حينما يكون شَغْل الوظائف الشاغرة حسب التأهيل العلمي والقدرات المهارية، لا بالمعارف والمحسوبية.

➢تنجح حين يكون تقدير الحكومة لمدير التعليم مساوياً لتقديرها لمدير الشرطة؛ من حيث الإمكانات المتاحة له، والمخصصات المادية والمعنوية الممنوحة له.

➢تنجح حينما يكون وزير التعليم مقدماً على وزير الدفاع، وحينما يكون راتب المعلم أعلى من راتب الضابط.

➢تنجح الثورة الثقافية عندما يكون نصيب التعليم والصحة في الموازنة العامة أضعاف نصيب الأمن.

➢تنجح الثورة الثقافية حين يدرك كل مواطن أن حريته تنتهي عندما تبدأ حرية الآخرين.

➢تنجح الثورة الثقافية حينما تتلاشى من أذهان الأسر رغباتهم في أن يصبح أبناؤهم أطباء ومهندسين.

➢تنجح الثورة الثقافية عندما تكون نسبة القبول لكليات

التربية والمعاهد الفنية والتقنية هي الأعلى.

➢تنجح الثورة الثقافية عندما تتلاشى القبلية، وتنتهي العنصرية، ويذوب كل أفراد المجتمع في بوتقة الانتماء للوطن.

➢تنجح الثورة الثقافية حينما يدرك الشعب أن الحرية ليست فوضى، وأن المدنيّة ليست في هتك القيم.

➢إذا نجح السودان في إقامة ثورته الثقافية، فستختفي جميع أمراضنا التي أقعدتنا سنين طويلة، وستتلاشى كل الأزمات التي أعاقت نهوضنا، ولن يكون في هذا الوطن مكان للمتخاذل، ولا المثبط، ولا للمخرب، ولا الفوضوي، ولا الكسول، ولا المفسد.

➢وسيكون المواطن مُعينًا للحكومة في تنفيذ سياساتها، وستكون الحكومة مسترشدة برأي المواطن، وسيكون موظف الدولة مهما علا منصبه خادمًا أمينًا للوطن، وحريصًا على خدمة المواطن.

➢هكذا تقدمت سنغافورة ونيوزيلندا ورواندا وماليزيا... وهكذا ينبغي أن نعمل إن أردنا فكاكًا من تلك الحالة التي نحن فيها.

***

كسلا من جنة الإشراق إلى حفرة الإحراق

●كانت فاتنة الدنيا، وحسناء الزمان، المدينة التي تضج جمالاً واشتهاء وألقاً، وتفوح أريجاً ومسكاً وعبقاً، كانت ملاذ كل متعب، وموئل كل موجوع، ووَزَر كل محزون، تربتُ عليهم، وتمسح دموعهم، وتخفف آلامهم، وتبهجهم بقضاء أسعد الأوقات فيها.

كانت كما قيل فيها:

كسلا أشرقت بها شمس وجدي

فهي في الحق جنة الإشراق.

مدينة حفّها القاش، واحتواها الجبل، واحتضنتها السواقي، فهي تحفّ من أتاها، وتحتوي من جاءها، وتحتضن من سكنها..

أما أهلها، فقد خلدت في عقل السودانيين الجمعي مقولة: «ناس كسلا ناس طيبين»، والطيبة هنا ليست من السذاجة، وإنما من حسن المعشر، وجمال التعامل، وإكرام الضيف .

مدينة جمعت بين جوانحها كل قبائل السودان، أتوها من كل الأنحاء، وجاؤوها من شتى الأصقاع، فانسجموا في

نسيجها، أقاموا بين لحمتها وسداها، وباتوا بين دثارها وشعارها.

أتاها مَن أتاها مِن خارج السودان، أتاها الهنود والإثيوبيون والإرتريون والصوماليون واليمنيون وغيرهم، عاشوا فيها، واتّجروا، وتزاوجوا، واختلطوا، وأصبح لهم ما لأهلها، وعليهم ما عليهم، فاستوطنوا فيها، وكانوا من ضمن مكونات النسيج الاجتماعي، فما لفظتْهم، وما رفضتهم؛ إذ كانت أمّاً رؤوماً للجميع، تهبهم محبة، وتهديهم احتراماً، وتملؤهم تعايشاً؛ إذ كانت المدينة نموذجاً للتعايش السلمي.

ولدتُ ونشأتُ ودرستُ فيها جميع المراحل المدرسية، فما كنت أعرف جاري في الفصل من أي قبيلة، وما كنت أعرف جاري في الحي من أي عشيرة، كانت تجمعنا كسلا، فهي قبيلتنا، وهي عشيرتنا، وهي وطننا، ننصهر في بوتقتها، فنتحد.

كانت مدينة المدائن، لا يبدّلها أهلها، ولا يرون أجمل منها، ويفخرون بها، وحين يُسأل أحدهم: من أين أنت؟ يقول ويكاد يطأ الثريا من تيهه وفخره وزهوه : من كسلا.

رأيت في طول غربتي ومخالطتي أناساً من مناطق أخرى من جميع أنحاء البلاد، لكن ما رأيت أحداً يحب مدينته كما يحب أهل كسلا كسلا.

قد كنتِ يا كسلا

تبزّين الشموس وضوءها لمَـــــعًا
وتستبقين ماء البحر؛ إذ جفت مياهْ
يا قولاً نبيلاً في مـــــــحياه
يا معنىً جميلاً في حناياه
يا عشق أيـــــــامي
ويا زهو أحـــــلامي.

ولكن: (وتلك الأيام نداولها بين الناس) آل عمران: ١٤٠.

ولكن:

هـي الأمـور كمـــا شـاهدتها دول
مـن سـره زمـــــن سـاءته أزمـان.

فقد تبدلت الأحوال، وتغيرت الأوضاع، وما عاد أهلها يحبونها كما كانوا، بل عقّها أبناؤها، وفجَروا في عقوقهم، وأصبحوا يتنادون بدعوى الجاهلية؛ إذ تفشت بينهم النعرات القبلية، واستفحلت فيهم الخلافات العنصرية، وأصبح أبناؤها لا يوحّدهم ما كان يوحدهم، ولا يميزهم ما كان يميزهم، بل أفسد بعضهم ماءها، ولوثوا هواءها، وشوهوا سيرتها، وعوّقوا مسيرتها.

ضاقت المدينة ببعض أهلها، بل ضاق أهلها بها:

لعمـرك مـا ضاقـت بـلاد بأهلهـا
ولكـن أخـلاق الرجـال تضيـق.

فهجروها إلى غيرها من لداتها اللاتي ما كنّ يحلمن في يوم أن يضممن بين جنباتهن شخصاً خرج مغاضباً من تلك الوريفة، ولكن لأنها لم تعد كما كانت، لم تعد «شاربة من الطيبة ديمة».

عانت كسلا من إهمال متعمد ممن تولوا أمرها، لم تنشأ فيها مشاريع استراتيجية، ولم تقم فيها برامج تطويرية، فبقيت متقاعسة بتقاعس حكامها، وزاد من ذلك تخاذل أبنائها.

يتحدثون عنها، وتسمع من كلماتهم التي لا تجاوز حناجرهم أنهم حريصون عليها، ولكن أفعالهم تفضحهم، فهم يقولون ما لا يفعلون:

وكلٌّ يدعـــــــي وصلاً بليلى

وليلى لا تقـــــــــر لهم بذلك.

تحتاج كسلا إلى توحيد الكلمة، ونبذ العصبية، ومنع الفتن القبلية، وتشكيل الرؤى، ووضع خطط استراتيجية للنهوض بالمدينة، ومعالجة مشكلاتها المتجذرة التي تستفحل كل يوم.

تحتاج كسلا لرجل رشيد يحمل همها، ويقُوم بشأنها، ويقَوِّم اعوجاجها، ويصلح حالها، ويغير ثقافة أهلها؛ حتى يكون الهم العام مقدماً على الهم الشخصي.

تحتاج كسلا وقفة صادقة من أبنائها في الداخل والخارج، تحتاج كسلا لدعم مالي ومعنوي وفكري، وتتطلع كسلا لبروز الضمير الكسلاوي الذي عاش مستتراً كثيراً، وكفاه استتاراً.

فليعمل كل أبنائها كلٌّ فيما مكّنه الله منه لرفعة شأنها، وليستغل شعراؤها وشخصياتها المؤثرة القاطنون في المراكز علاقاتهم وصلاتهم لتنفيذ مشاريع التنمية في المدينة.

تحتاج كسلا جهوداً مخلصة من أبنائها، وزعماء قبائلها، وكبارها، لسد الفجوة التي تتسع يومياً بين أهلها، ولرتق الفتق الذي يكبر باستمرار.

مدينة حباها الله من عناصر الجمال ما لم يتوافر لأية مدينة في البلاد وخارج البلاد، ولكن بقي جهد أبنائها في استكمال مشوار النهوض بها؛ لتعود سيرتها الأولى مدينة جاذبة ومصطافاً ومتربعاً للجميع كما كانت، وكما عهدناها.

وليدرك أهلها أن المكان يتسع للجميع، وأن كسلا قادرة على استيعاب كل أشكال التنوع التي تميز المدينة منذ القدم.

فهل تعود جنة الإشراق لتضيء جنباتها وما حولها؟ أم تظل في حال الإظلام الذي يخيم عليها منذ فترة ليست بالقصيرة؟

وأقول متفائلاً:

لكن وريفتنا التي أبداً عشقناها
ستنفض عن مآسيها غبار الحزن من كبد العناء
وتحدّث التاريخ عن قوم بروح وجودها رفعوا اللواء
نهضوا وقاموا حين تقاعس الآتون من رحم الغباء.

***

رحلتي من الخرطوم إلى القاهرة

(١) قطر حلفا:

كان القطار هو الوسيلة المجانية لنا، هِبة من وزارة التربية والتعليم السودانية للطلاب، لكنها ليست الوحيدة، فهناك الطائرة، لكنها لمن استطاع إليها سبيلاً، كنا نفضّل القطار؛ لأنه بدون مقابل، وكذلك بسبب الرفقة الجميلة التي كانت فيه.

نتجمع صباحـًا في محطة الخرطوم بحري للسكة الحديدية، كيف كنا ننسق معـًا؟ مع انعدام وسائل التواصل حينها، لا أدري! لكننا نجتمع على موعد وعلى غير موعد، نجد القطار وقد أُعِدتْ لنا فيه عربتان، تحملان في الخارج لوحتين قماشيتين كبيرتين، كتب عليهما: «اتحاد الطلاب السودانيين بجمهورية مصر العربية»؛ حتى لا يأتي أحد من الركاب قاصداً هاتين العربتين.

كنا نركب، ونحمل أمتعتنا بجوارنا، ومن أهم ما نحمل «الزوادة»، فكنا نتزود من الأكل والماء والمحبة والإخاء والصبر والتقوى؛ فالمسافة من الخرطوم إلى حلفا بعيدة «قرابة الألف كيلو متر»، ونحن صبية صغار كزغب الحواصل، والقطار يمر بمراحل، ليس في بعضها شيء يؤكل ولا يشرب.

ما كان أحدنا يتخير مَن يجلس بجواره؛ لأننا كلنا كنا أحبة، كل الناس أصحاب، كل الناس أهل، والذين ليسوا بأقرباء فقد قرّبهم القطر، ينطلق القطار رويداً رويداً، يتهادى بعجلاته على سكته الحديدية، ويطلق بين الفينة والفينة صوته المعروف؛ تنبيهاً لمارٍّ، أو تحذيراً لغافل، أو بدون سبب، فصوته المعروف الذي يهب الحياة ديمومتها.

يمر عبر محطة «الجيلي» وفيها شاي اللبن المقنن الجميل الذي ننزل جميعنا لنحتسي منه، ثم ينطلق ينهب الأرض نهباً إلى أن يصل محطة «شندي»، التي فيها أجمل «ساندويتش طعمية» أكلته في حياتي، وهذا رأي جميع الزملاء حينها، لست وحدي، لا أدري ما نوع أكسير الحياة الموجود في ذلك الساندويتش، ولا ننسى فاكهة شندي المميزة من مانجو وموز، ثم نهرع جميعنا مع سماع صفارة القطر، ونلتزم مقاعدنا.

بعدها تبدأ الجلسات داخل القطار في إعادة التخلق والتشكيل، فتتمايز المجموعات حسب اهتمامات مكوناتها، فمنهم من يفضل الشعر؛ فينضم لمجموعة الشعر إلقاء واستماعاً، ومجموعة تغني، ومجموعة تناقش قضية ثقافية، وأخرى تجد الرياضة مسيطرة على حواراتها، وهنا يحتدم النقاش، وتعلو الأصوات بين مؤيدي ومحبي قطبي الكرة السودانية المريخ والهلال.

يتهادى القطار بعجلاته على السكة الحديدية، ويصدر الأصوات التي توقظ النائم، وتنبه الغافل، وتعطي الحياة معناها.

إلى أن نصل إلى «عطبرة» المركز الرئيس للسكك الحديدية في السودان، إذ يبقى فيها القطار فترة أطول، يُجرِي فيها صيانته، وينزل الركاب كلهم للتسوق والأكل والشرب، وفي عطبرة صوت لا تخطئه أذن، كل من سافر عبر هذا الطريق يعرفه: «بالسمنة وكدة»، إنه صوت بائع «الباسطة» الذي يروّج لمأكولاته، وينادي بصوته المميز، صوت يحفّز غريزة الجوع في داخلنا بأن باسطته بالسمنة، والسمن البلدي أيضاً، فلا نملك إلا أن ندلف تجاهه، ونشتري منه ونأكل.

أثناء توقف القطار في محطة عطبرة، جاء أحدهم وأراد أن يركب في القطار، وساقه حظه للعربتين المخصصتين لنا، فأنزله أحدهم، وقال معترضاً: لماذا؟ قال: إنها مخصصة للطلاب، سأله مستنكراً: إلى أين يذهب الطلاب؟ قال: إلى مصر، يدرسون في مصر، اغتاظ الرجل، ولم يملك سوى أن ينصاع وينزل، لكنه نفّسَ عن غيظه حين قال: لو كانوا شاطرين كان درسوا داخل السودان!!

ضحكنا، وغفرنا له ذلك، وتحرك القطار يصدر صوت عجلاته التي تتهادى على سكته الحديدية، ويصدر حيناً صوته

الذي يوقظ النائم، وينبه الغافل، ويهب الحياة لمن حوله.

ثم جنّ علينا الليل، ولم نر كوكبًا ولا نجمًا في السماء، ولا ضوءًا داخل القطار؛ إذ بدأت جيوش الظلام تهبط علينا، وأصبحت الحركة محدودة داخل العربتين، لا ترى شيئًا؛ لتعطل مصابيح الإنارة داخل عربتَي الطلاب، لكنك تسمع الأصوات المختلطة التي تصدر من مجموعات النقاش:

الطيب صالح أعظم روائي عرفته البشرية، وإن شئت اقرأ «موسم الهجرة إلى الشمال» لتعرف ذلك، المريخ الفريق السوداني الوحيد الذي فاز بالدوري دون هزيمة أو تعادل، أين فريقكم؟؟ هذا البلد يحتاج إلى نخبة سياسية مؤمنة بقضاياه، أمينة على ماله، حريصة على مصالحه، السودان سلة غذاء العالم، ستتأكد من ذلك، سيأتي الناس ليغتربوا عندنا في يوم ما، التعليم في السودان مميز، لكن الفرص قليلة، لو تتسع الجامعات قليلاً؛ لتقبل أكبر عدد من الطلاب، لا لا لا، أنا أختلف معك، لا بد من استمرار التعليم خارج البلاد، القصة ليست في اكتساب معلومات، وتحصيل شهادات، وإنما في تبادل خبرات، ونشْر ثقافات، حتى ننهض بالرياضة لا بد من تأسيس فرق سنية للأندية، ولا بد من تسويق لاعبينا المميزين؛ ليتعرف عليهم العالم، ويحترفوا خارجيًا، تتخيل أني أتحدث مع طفل صغير قولت له: عيب يا ولد تعمل كدة، قال لي: أنت ما أبوي ولا

عمي ولا خالي، مالك بي؟! انظر كيف اختلفت الأخلاق، منذ زمان كان أي واحد يقوم بدور التربية في الشارع، الآن الولد يتكلم معي بهذه الطريقة! تتخيل أخوي معلم ضرب ولداً في الفصل، فالولد اشتكى لوالده، منذ زمان الأب يقول: لك اللحم ولنا العظم، أما الآن فالطالب يشتكي المعلم، والأب يحزن.

أصوات وأصوات وأصوات من داخل حلقات النقاش في العربتين المظلمتين، فقط أصوات، حيث لا مجال للحركة لتعذر الرؤية، تتعدد الأصوات ثم تتحد لتشق ذلك الظلام، ولكن تستطيع وأنت تتابعها تمييز صاحب كل صوت.

بدأ القطار يدخل في مناطق لا حياة فيها، ولا تجد فيها مأكلاً ولا مشربًا، إنها صحراء السودان في شماله الأقصى، وبدأت «زوادتنا» من المأكل والمشرب تنفد، وتسلل الخوف إلينا، والقطار ينطلق لا يلوي على شيء، وبدأنا في اتخاذ سياسة ترشيد ما لدينا من أكل وشرب، ثم نفد الأكل، وبدأنا في ترشيد الماء، وتسلم أحدنا مهمة تزويد الآخرين بجرعات الماء؛ حتى لا يكون هناك إفراط يودي بحياتنا، وكان من الحِيل اللطيفة التي تفتقت عنها عبقريتنا، ويستخدمها بعضنا ليأخذ جرعة ماء إضافية على حصته، أنه يقول لخازن الماء: إن عندي حبة دواء، لا بد من تجرعها الآن، فقد حان وقتها.

قطع القطار تلك المنطقة الموحشة التي لا حياة فيها، ولا معالم تميزها، سوى «قطية» لموظف السكة الحديدية، ما كل هذا الفراغ! فجأة تسمع صوت طفل يهرول لاهثًا خلف القطار، تتلفت يمنة ويسرة، لا تجد أثراً لحياة، وتتساءل بكل ملامحك: من أين خرج؟

أخيراً وصلنا وادي حلفا.

وتلك قصة أخرى، تأتيكم لاحقًا إن شاء الله.

* * *

من الخرطوم إلى القاهر

(٢) في وادي حلفا والباخرة:

كانت مدينة جميلة بهية، تتاخم الحدود المصرية، تم إغراقها؛ لتمتد إليها بحيرة ناصر، بموجب إنشاء السد العالي، وافق الرئيس إبراهيم عبود على ذلك، عطاء من لا يملك لمن لا يستحق، في صفقة لم تُقِم قدراً للقسم الذي أقسمه عبود في حفظ حدود البلاد، وترابها، ولم تراعِ التركيبة الديموغرافية، تم ترحيل مَن أراد من سكان حلفا إلى منطقة أقيمت فيها مساكن، وأسموها: حلفا الجديدة، من أقصى الشمال نقلوهم إلى أقصى الشرق.

لكن بقي قسمان من السكان: قسم غادر إلى مصر، وقسم تشبث بالمنطقة، وبقي فيها، رغم انعدام مقومات الحياة، خاصة بعد إغراقها.

أغرقت حلفا، وأُغرِقت معها آثار تمتد لآلاف السنين، وأغرق معها مزارع تضم آلافًا من أشجار النخيل، وأغرق معها مساكن وأحلام وآمال وتاريخ وذكريات الحلفاويين.

فقدَ أهل حلفا الانتماء للسودان، فكانوا يقولون للقطار

الذي أتينا به من الخرطوم: قطر السودان جاء، كأنهم ليسوا منه، ربما تجد لهم العذر، بسبب الغبن الذي أصابهم جراء إغراق مدينتهم.

كنا نضطر حسب برمجة الرحلة للمبيت ليلةً في حلفا، انتظاراً لموعد الباخرة التي ستقلّنا إلى أسوان، كنا نقضي ليلة نابغية في حلفا.

لو اضطررت للنزول في فندق لقضاء تلك الليلة، فإنك ستنفق كل ما تملك، وربما لا يكفي؛ لأن أصحابها يستغلون الظروف، ويقتنصون الفرص، ويرفعون الأسعار.

وكان الملجأ لدى كثير من الطلاب هو فندق الرمال، إنه فندق بدون مقابل، لا يسألك أحد عن الحجز، ولا عن قيمة الليلة، ولا عن الخدمات التي تستغلها، ولا يأتيك من يكدر راحتك حين ينبهك أن مدة إقامتك في الفندق قد انتهت، فمدة الإقامة في فندق الرمال مفتوحة.

لكن الحقيقة ليس هناك فندق باسم الرمال، وإنما تلك تسمية أفرزتها سخرية الطلاب، ويقصدون النوم على الرمال في محطة القطار، يتوسد كل طالب حقيبته.

حينما تهيج في دواخلنا غريزة الجوع التي لا بد من تلبيتها، ترانا نهرع للمطاعم البعيدة والنائية؛ لتناول ما تيسر، ليس ثمة مجال للاختيار والتشهّي، وإنما تأكل ما تجده، وتدفع ما يُحدَّد

لك، لا تنبس ببنت شفه، فأنت الحلقة الضعيفة.

جاءنا الإعلان من منظمي الرحلة؛ ليبلغونا بموعد صعود الباخرة، حملنا أمتعتنا الخفيفة، وحملنا معها ما اشتريناه من «تسالي، وكركدي، وشاي...»، وبعض الخيرات السودانية التي سنبيعها في أسوان؛ حتى نستفيد من قيمتها في شراء تذكرة القطار من أسوان للقاهرة؛ حيث هبة السفر المجاني لا تشمله، وبقية المبلغ يقضي لنا بعض الحاجات، إلى أن نتسلم مبلغ الإعانة الشهرية التي تصلنا من السودان عبر السفارة السودانية في القاهرة.

في داخل الباخرة التي يمتد إبحارها قرابة العشرين ساعة كنا نجلس، فلا مكان فيها للنوم، كل الباخرة مقاعد بلاستيكية.

داخل الباخرة أمضينا تلك الساعات العشرين كما أمضينا أوقات القطار؛ فتجددت حلقات النقاش السابقة، وبدّل بعضهم حلقته، فمَن كان في الحلقة السياسية انتقل لحلقة الرياضة، ومِن الرياضة انتقل بعضهم للثقافة، ولكن الكثيرين تمسكوا بحلقاتهم، ولم يغادروها.

ناداني أحدهم: هل أنت طارق؟ قلت: نعم، قال: قرأتُ لك قصيدة بعنوان «شجرة الأمل» في إحدى الصحف الطلابية، قلت: نعم، قال: أريد أن أسمعها منك، قلت له ضاحكًا: أنْ تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، فأنا معروف عني أني لا أجيد

إلقاء الشعر، ولا أحفظ قصائدي، لكنه أصرّ، وتحت إصراره رضخت للأمر الواقع وأنشدته:

أتأمّلُ في وجه الدنيا
أتحسّسُ بُؤرَ الأشياء
أتلمّسُ قنديلًا مُطفأ
ألمحُ ومضاتٍ حية
تلوِّح وسط الديجور
****
أتأمل عاطفةً صدِئَة
أستشعر ذاكرةً خرِبة
لمحاتُ الأملِ المخبوءِ
تتوارى حينًا وتسافرْ
وتغادرُ شاطئَ أمنيتي
تتهلهلُ صلةُ الأشياءْ.

...

...

...

ثم توقفت، ونقّبت عن باقي القصيدة في حنايا رأسي، فلم تسعفني ذاكرتي «فكانت خربة كما في الأبيات»، كان صاحبنا مندمجًا جداً، عاش جو القصيدة، وعندما توقفت لأني نسيت

باقيها، ثار وغضب، وطلب مني البحث عنها في حقيبتي، وللأسف لم تكن موجودة في الحقيبة.

تعجبت!!!

ألهذا الحد يوجد من يحب الشعر؟!

ثم وصلت الباخرة أسوان، ثغر مصر الجنوبي، أسوان العقاد الذي أحب السودان، وكتب بعض عبقرياته وهو في الخرطوم، وبهذا وصلنا مصر، مصر التي استعصت على شاعرنا الكبير التجاني يوسف بشير، الذي كان يتمنى أن يدرس فيها، لكن ضيق ذات اليد حالَ بينه وبين ما يشتهي، فأنشد قائلاً:

أملي في الزمان مصرٌ فحيَّا الله مستودع العروبة مصراً
نضّر الله وجهها فهي ما تزداد إلا بُعداً عليَّ وعسراً.

....

وصلنا مصر، وتلك قصة أخرى.

أبسطها لاحقًا إن شـــاء الله.

***

من الخرطوم إلى القاهرة

(٣) أسوان القشاش القاهرة:

وصلنا أسوان، فلم نشعر أننا انتقلنا من بلد لآخر، وكنا نرى أنها امتداد للسودان، المدينة تشبه مدن السودان، والناس يشبهون ناس السودان، اللون لوننا، والكلام كلامنا، والجو جونا، ذلك الحر الذي يلهب الجلد في السودان هو هو في أسوان، لم يتغير.

تتجول في أسواق أسوان، وتطرق آذانك أغاني محمد وردي والكابلي، تنطلق صادحة من المتاجر والمحال، وفي أسوان كان من ضمن برنامج الرحلة هو أن ننزل ليلة في بيت الشباب في وسط المدينة، كانت داراً جميلة تشبه داخليات الطلاب، وتتجانس مع هيئة المدن الجامعية، لكنها أصغر حجماً.

كنا نريد أن نخلد للراحة، فقد أرهقنا السفر، وأضنانا السهر، ولكن حرارة الغرف داخل الدار مع تمتع الجسم بطاقة تقوى على طرد التعب، وتوافر رغبة في التشوف، ونهم في الاستطلاع؛ لذا لم نركن لنداء الجسم، ولم نرضخ لشهوة الراحة؛ فلم ننم، ولم نستلق، وضعنا حقائبنا، ونزلنا نقصد المطاعم ثم نتجول في كورنيش أسوان، حيث نيلنا يمتد.

ثم عدنا للقطار من جديد، وكان قدرنا أن نركب هناك عربات دون إضاءة، وهنا لا تسمح لنا ميزانيتنا سوى بـ «القشاش» فهو الخيار الملائم لجيوبنا، فلا طاقة لنا اليوم بـ «المجريِّ» وصحبه.

داخل القشاش عالم آخر، تجد كل أطياف الكادحين من المصريين، تجد جنود التجنيد الإجباري المشهورين باسم «دفعة»، ولا يمكن أن ترى أحدهم دون علبة «سجاير كليوباترا سوبر»، فتلك سمة ملازمة لهم، ومكملة لمظهرهم، يدخنون بشراهة، تقلب بصرك فترى تلك السيدة المسنة التي تصطحب صغاراً معها، يطرق النعاس باب عينيها، فلا تستطيع أن تفتح؛ لأن الجو المحيط لا يشجع، فجأة تأتيك أصوات تشق الأسماع من الباعة المتجولين داخل القطار:

ويأتي بائع الحلوى، ويلكزني، فلا أسمع.

ويأتي آخرٌ: هيا، شرابٌ باردٌ «ساقعْ».

ويأتي ثالث يصرخ: إذا ما ابتعتموا مني

فإني شاكرٌ لكمو

فبيعي يورث الصحة.

وصوت آخر لاثنين يتشاجران حول مقعد، وصوت أجش مثل محرك سيارة متعطلة في رمال، يحاول سائقها جاهداً تخليصها، هذا الصوت الأجش يبدو لرجل حكيم، يحاول

فض المنازعات بين الركاب الذين تداخلت أماكن جلوسهم أو وقوفهم، واعتدتْ رِجلُ أحدهم على موقع الآخر، حين امتدت وهو لا يدري، وصوت آخر لكنه ليس لآدمي، وإنما لمجموعة فراخ داخل قفص حملها أحد الركاب، فكأنّ الفراخ حاولت تقليد واقع البشر في القطار، فهي تتشاجر، وتصيح أيضاً، ولسان حالها يقول: «أيش معنى نحن؟!» ورغم كل ذلك، فلا يخلو القطار من فكاهات ودعابات وقد اشتهر المصريون بذلك تخفف من رهق السفر، وتكدس القطار، وصعوبة الجلسة.

المسافة من أسوان للقاهرة تضاهي المسافة من الخرطوم إلى حلفا، فالمعاناة داخل القطارين هي هي، ولكن إحساساً جميلاً ينتابنا الآن، حين نشعر أننا في خاتمة الرحلة، إحساس قد خفف عنا الضجر.

يمضي القطار كما مضى أخوه، ينهب الأرض نهباً، تدور عجلاته، تصطك بالقضبان، ويصدر صوته الذي ينبه الغافل، ويوقظ النائم، ويذكّر الناسي، ويبعث الحياة فيمن حوله.

يأتي «الكمساري» ومعه «البطارية، الكشاف» ينير بها لنفسه، ويرى بها التذكرة، ويتعرف بها على قطع النقود، ويسعى جاهداً لإعادة ترتيب الناس، وتنظيم المقاعد، ولكن هيهات.

نحن الآن في مصر، مصر التي في خاطري، مصر التي رأيناها

عبر الشاشات منذ الصغر، ونحن نتواجد فيها الآن أمراً واقعاً ووجوداً حقيقياً، مصر على الواقع ليست مصر على الشاشة، فمصر قد ظلمها إعلامها كثيراً.

يمضي القطار بهذا النمط الرتيب، لا جديد في الداخل، لكن الخارج كان مبهراً، مزارع مد البصر، ثم يتخللها أحياناً النيل ذلك النهر الخالد الذي يهب الحياة؛ فمصر حسب هيرودوت «هبة النيل».

يصل القطار القاهرة، محطة رمسيس الضخمة، المزدحمة، ونجد وفداً من اتحاد الطلاب السودانيين في استقبال الطلاب الجدد، وإنزالهم في شقق استقبال؛ حتى يهيئوا لهم أماكن للسكن قرب أماكن دراستهم.

كنا نجتمع، أعداداً من الطلاب من مختلف أنحاء السودان، قُبِلوا في مختلف الكليات والجامعات المصرية، قد يمتد بقاؤهم في شقة الاستقبال يوماً أو يومين، ولكن لا يزيد عن ثلاثة؛ إذ كان يتم توزيع الطلاب بسرعة على شقق يستأجرونها، ويسكنون فيها حتى يبادروا بإجراءات تسجيلهم، وينتظموا في كلياتهم؛ لأن الطلاب المستجدين كانوا يصلون مصر بعد مرور شهرين على بدء الدراسة، بسبب تأخر إجراءات القبول والتنسيق، وكان أبرز ما يميز شقة الاستقبال هو التعارف، كل واحد يذكر اسمه وكليته ومدينته في السودان.

أما المواقف الطريفة في القاهرة، فلا تعد ولا تحصى، ولكن أكتفي بثلاثة:

الأول: كانت القاهرة حين وصلناها تضج بالبرد القارس الذي لم نكن قد اعتدنا عليه، في شقة الاستقبال أراد أحد الطلاب أن يستحم، ولسوء حظه كان السخان متعطلاً، فصمم على أخذ «الدش» البارد في عز شتاء يناير في القاهرة، وعندما خرج من الحمام، جاءنا يرتجف من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه، وحكى لنا أنه فتح الدش، وكان يمد يده، ويلمس الماء، ويسحبها بسرعة، ثم يكرر المغامرة مرة أخرى، فثالثة.. إلى أن توكل على الله، واقتحم الماء البارد، وخرج لنا بتلك الحالة، يرتجف ويرتج ويهتز برداً، وجلس ملتحفاً بالبطانية، وفجأة أعطاه أحد الزملاء سيجارة؛ ظنّاً منه أنها تبعث فيه الدفء، فدخنها، ومِن طريقة تدخينه تدرك أنه ليس بمدخن أصلاً، وبعد فترة حكى لنا أنها كانت السيجارة الأولى والأخيرة في حياته، ولكنه البرد.

الثاني: تفرقنا صباح اليوم التالي إلى كلياتنا، بعد أن أكملنا تسجيلنا واستلمنا بطاقاتنا الجامعية « الكارنيه» ذهبنا لأخذ الجدول الدراسي، وكان معلقاً على الجدار، وبجوار الجدول يوجد جدول آخر للطلاب الذين لديهم رسوب في بعض المواد، وكان مَن يرسب في مادة يسمونه حسب العرف الجامعي

المصري متخلف، مثل: الملحق في السودان، أي: يحمل معه مواد، وكان صاحبنا يبحث عن جدوله، وهو طالب مستجد؛ حاله حالنا، فسأل إحدى الطالبات عن موقع الجدول، فقالت له: أنت متخلف؟ هنا ثارت ثائرته، وانفعل وأرعد وأرغى وأزبد، لولا أن منّ الله عليه بمن نبهه بمقصد الفتاة، وأن التخلف ليس عقلياً كما ظن، فهدأت ثورته.

الثالث: استأجرنا شقة في الدقي شارع إيران بجوار مسرح نجم، تملكها سيدة مسنة، ودفعنا قيمة إيجار الشهر، وأبطأت علينا في العقد، وهنا انبرى أحد زملائنا المستجدين؛ وهو طالب في كلية الحقوق، وقال: سيذهب للسيدة ويطالبها بالعقد؛ لأنه حق قانوني لنا، فصاحبنا ما زال في الأسبوع الأول في كلية الحقوق، وأحب أن يمارس مهنة المحاماة، فذهب إلى السيدة وطالبها بالعقد بعد أن قدم نفسه على أنه طالب حقوق، وقدم مرافعة قانونية مضمونها أن العقد حق للمستأجر، طالما استلم المؤجر قيمة الإيجار، فكانت السيدة تستمع له منتظرة انتهاء المرافعة ثم قالت له مشيرة لزوجها المسن المُقعَد: طالب حقوق أيه يا بني، أهو البيه مستشار، و «متلأّح» عندك هنا!

استقرت بنا الأمور بفضل الله، واندمجنا مع الدراسة والبيئة والمجتمع، فالمجتمع المصري يجيد استيعاب الآخرين، ويسهل التعاطي معه.

هنا اكتملت الرحلة من الخرطوم إلى القاهرة، في أجزائها الثلاثة، قطار، فباخرة، فقطار. سرد من الذاكرة قد يكون فيه إخلال، وقد يكون فيه تداخل في تعدد مرات السفر، وقد أكون مزجت بين رحلة ذهاب ورحلة عودة، فالمهم عندي الأحداث، وتوثيق تلك اللحظات، ليس غير.

***

وجاءت مريم

جاءتنا نسمة عليلة مع فجر جميل، وصباح وضيء، سمتها أمها: مريم، وكلنا نعيذها بالله من الشيطان الرجيم.

جاءتنا لتقول لنا: إن الحياة تأخذ منك بيد، وتهبك بالأخرى، غادرت مريم الأولى دنيانا، وجاءت مريم الأخرى، وكنا في انتظارها سنين طويلة، كانتظار ذاك للمجدلية.

جاءتنا نسمة غشيت وجوهنا، ونغماً شنف آذاننا، ولحناً عبقرياً، وخالطتْنا، ولم تتخذ من دوننا حجاباً.

نعيش سنينا في جدلية الموت والحياة، والأخذ والعطاء، والمنع والمَنْح، والمحن والمِنَح، وهكذا جاءتنا مريم؛ لتعلمنا معنى الحياة والعطاء، والمِنَح والمَنْح.

جاءتنا وقد اتخذت مكاناً قريباً، ولم تنتبذ مكاناً شرقياً، حلت في سويداء الفؤاد، ولم تمكث في مكان قصيّ، جاءتنا، وما تمنت أن كانت شيئاً منسياً.

هذا البيت الذي حلق فيه طائر الحزن كثيراً، وتمكّن من جوانبه، واستوطن في أركانه، جاءته مريم؛ لتهبه الفرح، وتنشر عليه الحبور، وتمنحه شآبيب السعادة.

هززنا بجذع الدنيا؛ فتساقط علينا روحًا جميلة، وضحكة بريئة، وصوتًا عذبًا.

شربنا من ذلك «السريّ»، فكان عذبًا فراتًا سائغًا شرابه، روى غليلنا، وأزال ظمأنا.

إنها مريم، ستكون ورِعةً، تقيةً، كريمة؛ كالأولى، وناديها: يا مريم أنى لك هذا؟

نعم كله من عند الله، إنه يرزق من يشاء بغير حساب، ومَن قال إن الرزق هو في الطعام والشراب فقط؟! فتلك النسمة التي غشيتنا أعظم الرزق، المستوجب لحمده تعالى.

***

ذلك الرجل الأُمَّة

عن أحمد زروق أتحدث:

ثمة رجال تسعى لاحترامهم، ولكن القليل ممن لا تملك إلا أن تحترمهم، فهم يفرضون عليك ذلك، ومنهم أحمد زروق.

ثمة وجوه قد يغيب ذكرها، وتختفي ملامحها، بغياب أصحابها، لكن القليل من يخلد ذكره، وتبقى ملامحه، حتى لو غادر، ومنهم أحمد زروق.

اختلط شعر رأسه بتناغمٍ، بين أبيضه وأسوده، لا تُغِير الشعرة البيضاء على مكان السوداء، ولا السوداء على مكان البيضاء، كل واحدة منها عرفت مكانها، واتخذته مقراً لها.

تناغمٌ امتد لحياته كلها، حياته الخاصة وحياته العامة، اتساق تام في علاقاته بين الناس، يعطي كل من حوله حقه ومستحقه، لا يتجاهل أحداً، ولا يظلم أحداً.

عشت جواره منذ مولدي، ما رأيته غاضباً، ولا رافعاً صوته، ولا متضجراً، ولا مترفعاً، عاش راضياً، ومات مرضياً.

«لعل ما في زول أبي عشاه».

عبارة حصرية له، يقابل بها زواره، ويبتدر بها مزوريه، متفقداً لهم ولذويهم، يطمئن بها أن الجميع بخير، طالما أنه لا يوجد أحد «أبى عشاه». رمزية لا يصل إليها إلا هو، من أكل وتناول عشاءه يعني أنه بصحة وعافية.

يجالس الصغير والكبير، والرجل والمرأة، والمتعلم والجاهل، لا يفرق بين أحد، يهب الحياة لمن حوله، ويضخ الدماء في عروق العلاقات الإنسانية، ولا يدعها تتجمد، ويمنح الدنيا إكسير البقاء، ويعطي الصلات صك الديمومة، ويُبقِي الأواصر قيد الاستمرارية.

يجيد الحوار مع الجميع، متمكن من احتواء المتناقضات، واستيعاب الأشياء.

إن طلبته في السياسة فهو أبوها، وإن دار الحديث عن الثقافة فهو ابن جلدتها الذي خبِرَها وخبرتْه، وإن تجولت معه في الرياضة، فلك أن تستمع وتندهش.

لم يفصل ظله عن أسرته، ولم يقصر عوارفه على نفسه، ففاض منه لغيره الظل والثمر، ليستفيد منه الجميع في الحي والمدينة، كان يحمل هموم الناس ويدافع عنهم، وكان لسان من لا لسان له، وحجة العاجز، ومنطق المسكين. كان يحمل هم أهل مدينته، وساكني حيِّه، يسعى لخدمتهم، ويعمل على راحتهم، كان ينطق بلسان حال المستضعفين، ويعالج قضاياهم، ويفرِّج أزماتهم.

فقد حبيبتيه، فصبر، فله الجنة، ببشارة نبينا صلى الله عليه وسلم، فقد بصره آخر أيامه، ولم يفقد بصيرته، ولم يتغير شيء في مسيرة حياته، كان كما هو، رجل المجتمع الأول بلا منازع، تقبَّل العمى بالرضا والصبر، ولسان حاله يقول:

فبات يريني الخطب كيف اعتداؤه

وبتُّ أريه الصبر كيف يكون.

صبرَ حتى عجز الصبر عن صبره، لأنه يريد أن يكون في معية الله، فهو يعلم: (إن الله مع الصابرين) البقرة: ١٥٣.

كنا صغاراً كزغب الحواصل، نلعب الكرة، في الأزقة والحواري، وأمام البيوت، وإن طاشت كرتنا ووقعت في بيت أحدهم، كان يمزقها، ونعود حزانى لا حيلة لنا، وينفض سامرنا، لا نلوي على شيء، ويتفرق جمعنا، ويتشتت فريقنا، وكان أحمد زروق يأتينا بِكُرَةٍ جديدة، لم نكن لنحلم بها، ولا نقوى على شراء مثلها.

كان نسيج وحده، وشبيه نفسه، كريماً يبلغ منتهى الكرم:

هو البحر من أي النواحي أتيته

فلجَّتُه المعروف والجود ساحله.

يعطي ولا يخشى غده، ولا ما فيه، وإنما يتوكل على ربه، ويفعل ما بوسعه، لا يقهر سائلاً، ولا ينهر مسكيناً، يغيث الملهوف ويعين الكَلَّ، وحاله:

ولـو لـم يكـن في كفـه غيـر روحـه
لجـاد بهـــــا فليتـق الله سـائله.

كانـت «صينيتـه» في «المناسـبات» في مرمـى نظر النـاس، كان يـأتي فيهـا بمـا لـذ وطـاب؛ إذ كان لـه قصـب السـبق، والقـدح المعلى.

كأنّ الأول قد عناه حين قال:

أخٌ لـي مـــــا أراه الدهـرَ إلا
علـى العِـلَّاتِ بَسّـــامـاً جَـوَادَاً
سـألناه الجزيـلَ فمــــــا تلَـكَّأ
وأعطـى فـــــــوق مُنْيَتِنـا وزادا
وأحسَـنَ ثـمّ أحسَـنَ ثــــــمّ عُدنـا
فأحسَـنَ، ثـــــــمّ عاوَدْنـا فعـــادا
مِـرارًا مـا أعــــــود إليـه إلا
تبسّـم ضاحكـًا، وثنــــى الوِسـادا.

يجالسـك ويسـألك ويناقشـك، ويمنحـك صـك الصلاحيـة، أنـك أصبحـت مثقفـًا وعارفـًا وقـادراً على تحليل الأمور، يسـعى دائمـًا لأن يرتقي بمن حوله، ويرفع من شأنهم، ويطورهم.

يسـتمع إليـك باهتمـام وإنصـات وإصغـاء، وأنـت تتكلـم عـن

موضوع، يكون هو قد سمعه قبل أن تولد، ولكنه أدب الاستماع.

لاقى ما لاقى من عنت الحكام وظلم النظام، لكن كان يخرج كل مرة أقوى من ذي قبل.

لاقى ما لاقى من جهل الأطباء، وتكرار الأخطاء، لكنه لم يحمّل أحداً مسؤولية، ولم يكلف أحدهم ذنبًا، وإنما عاش راضيًا، ومات مرضيًا.

لم تفارق الابتسامة فاه، ولم يغادر الانشراح صدره، لم يتضجر، ولم يغتب، ولم ينم، ولم يذم، ثم مضى إلى ربه، والجميع يردد عنه: يقولون مرَّ، وهذا الأثر.

***

ورحل حمام الوادي

•وما زالت الأحزان تتوالى، وما زالت البلاد سرادق عزاء كبير، كل يوم يفجعنا الموت بفقد قامة من قامات بلادي.

وما زالت الساقية مدورة؛ فقد رحل حمام الوادي، غادر مع النسمة «الحزاينية»، كم نادانا: بلادك حلوة ارجع ليها، لا رجعنا نحن، ولا بقي هو!! تمنينا أن يكون لنا إزميل فدياس وأمامي تل مرمر، حتى ننحت وطنًا بالعزة ربانا.

رحل حمام الوادي، وترك قلبنا المكلوم كمداً، نعصر دموعًا، ولسان حال البلد كله يقول: يا حليلو.

كل السنين التي قضيتَها، تشجينا وتمتعنا وتسعدنا فيها، مرت سراعًا، كل العمر كان لحظة واحدة، والشوق يتقد، فكلنا: جنبك ونشتهيك.

رحل حمام الوادي، وهاجر لوطن ثاني، وفارق خضرة النيلين.

وأقول له: عشك فايتو وحداني / ده أنت القلت ما تنسى / وطن بالعزة رباني / أهداك جو تعيش فيه / وجوه عيونه خلاني.

رحل حمام الوادي وترك الساقية طاحونة الأنين / طول

الليالي مدورة / تحت الهجير.. تحت الظلام.. تحت المطر.. عز الشتاء.

غادرتَنا يا حمام الوادي، ونبهتَنا قديمًا: أن المفارق عينه قوية.

رحلت وتركت السواقي النائحة وسط الليل، حنين الدنيا ممزوج في بكاها.

رحل حمام الوادي، وترك محبيه زي طيور في الفروع محتارة بتفتش جناها.

رحل حمام الوادي، وترك البيوت والناس بتسأل عن صبية فارقتْ حلتنا زي طير غريب سافر عشيه.

كانت كلمات غناك العذبة تدخل قلوبنا دون أن تحتاج أن تنقر أبواب القلوب، وقد بكاك الوطن، وناداك بقدر خيوط مناديلك.

رحل حمام الوادي، وترك خلفه رجالاً أعجبوه وسروا باله، لأنهم طول الليل واقفون سواري، ترسوا البحر بالطواري، وما نسوا ريحة الطين في جروفنا.

رحل حمام الوادي وترك لنا عبرة وغصة، وترك ذكرى تهدي حنانًا، كيف لو إنسان أصبح قصة، احمد القصة يا سودان.

رجل حمام الوادي وكنا مشتهين تضم العش بحنية، مش حرام تسيبنا للريح، فأنت من أحبابنا، وأنت من أهل هوانا، الذين رحلوا، وتركوا أعظم أثر.

كلما يتحدث الناس عن المبدعين، غايتهم الكلام، جاب الكلام، وغلبنا من سيرتك نقيف. ونقول لك بكل كبرياء: نحبك كثيراً.

رحل حمام الوادي، وهو يعلم أن دمع الحبايب زي دموع السارية في وادي البعيد.

أخيراً أقول لك: حرام يا الفنجري ما تسيب وصية!!!

رحم الله «حمد الريح» وغفر له، وجعل الجنة مثواه.

***

تجاويف التجاويف

قراءة في نص «تجاويف حلم» للكاتبة السعودية بدور بن سعيد:

قرأت صدفةً نصاً بديعاً للأستاذة القديرة بدور بن سعيد، وأنا يستهويني النص الجميل، ويستوقفني المعنى العميق، إنه نص يقف في أعلى درجة من درجات سلم النثر الفني، ويجاور أول درجة من درجات الشعر، نص رائع مكتنز بكل جمال.

النص دائري في أحداثه وتسلسله؛ إذ عادت الكاتبة إلى نقطة البدء؛ إذ بدأت وهي في مفترقي حيرتها، وانتهت عند مفترقي حيرتها، حتى في العبارات فقد بدأ النص بالخطى الثقيلة، وانتهى بالخطى الوئيدة.

أحكمت الكاتبة نسج نصها، وأجادت سبك فكرتها، ولم يوجد في النص أية ثغرات، وليس فيه أي خلل، ولا فجوات، فهو نص محكم رصين، فكل كلمة تؤدي دورها في مكانها، وتُسلمُك للتي تليها، وكل تركيب يحقق مقصوده، ويوصلك لما بعده.

تدهشك الكاتبة باستخدام «غير المألوف» من العبارات،

فالجميع يقول: أقف في مفترق طرق، ولكنه عند بدور ليس مفترق طرق، وإنما مفترق حيرة، فكأن كل الطرق تؤدي إلى حيرة.

كذلك تغيِّر الكاتبة بحكمة بالغة طبيعة الأشياء، فالقطب الشمالي لم يعد متجمداً، والساعة لم تعد بها أرقامها التي تشير للوقت.

الوردة هي بطلة النص، فهي الهدية القيمة في فصل الشتاء، وهي التي زرعتها الكاتبة في مفترق حيرتها، وهي التي يزرعها الزارعون ثم يخسرون، وهي التي انبلجت أساريرها، وهي التي تُركت على الطاولة تثمينا لدور الطاولة في تقبل ما دار عليها من عبث.

لغة النص لغة شعرية رقيقة موحية، تضاهي أبلغ القصائد لغة، من حيث المفردات الرقيقة والتراكيب الجزلة.

أما الصور البلاغية في النص فلا تحصى، وحسبي منها:

الاستعارات مثل:

- نسج رداء الأمل.
- أفيض بماء الصبر.
- جمر الأرق.
- تضحك شموس الضحى.

وكذلك التشخيص؛ حيث جعلت الطاولة كأنها إنسان يعاني ما يعانيه الإنسان حين قالت: «عرفانـًا للطاولة التي تحملت عبثهم في الليلة السابقة» وهذا قمة الاتحاد بين الإنسان والمحيطات به من جمادات.

ويبرز التجريد، حيث جردت من نفسها شخصية أخرى وقالت: «إنها سئمت توبيخها، فمنحتها وردة».

يوجد كذلك الطباق الجميل والتضاد الرائع بصورته كطباق إيجاب بين «الشروق والغروب»، أو كطباق سلب في «لينطفئ ولا ينطفئ»؛ مما أعطى المعاني وضوحـًا.

ويظل النص يحمل القارئ لمشاركة الكاتبة حيرتها، وهي في مفترق حيرتيها بين العودة لارتداء ثوب الأمل، والبقاء حيث هي دون قدرة على التحرك؛ وذلك لثقل الخطى.

والحيرة السائدة في النص منطقية وطبيعية؛ لأن عنوان النص وهو تجاويف حلم، فالتجاويف متشعبة ومتعددة المسارات، ومختلفة الطرق، ولا تدري أي الطرق يمضي بك للمخرج الآمن.

***

دقة العنوان وجودة المضمون:

دراسة أسلوبية في مقالات الأستاذة سحر علوي الشيمي

•قرأت مقالاً للكاتبة الأستاذة سحر علوي الشيمي، ووجدت فيه مقومات المقال المتكامل، وبعدها ظللت أتتبع كتاباتها، واستمر معي الاندهاش الممزوج بإعجاب بتلك المقالات؛ لأني وجدت فيها نمطًا مختلفًا للكتابة.

ساعتئذ تواصلت مع الكاتبة، واقترحت عليها جمع مقالاتها في كتاب، وطلبت منها الإذن لي بدراسة بعض مقالاتها بشكل مفصل، لبيان أسلوبها في الكتابة، وإلقاء الضوء على مقالاتها.

•فقررت إجراء هذه الدراسة عبر المنهج الأسلوبي الذي يتناول النصوص من خلال عدة مستويات، هي:

- المستوى الصوتي.
- المستوى الصرفي.
- المستوى النحوي.
- المستوى الدلالي.
- المستوى البلاغي.

وستتداخل هذه المستويات عندي في التناول، ولن أفْصِلَها فصلاً حاداً، وسأركز على أهمية كل مستوى ودوره في الفهم الأعمق للنصوص.

•لي قناعة تامة أن الكاتب إذا وفق في اختيار عنوان كتابه أو عنوان مقاله، أو الشاعر إذا وفق في اختيار اسم ديوانه أو اسم قصيدته، سيكون المتلقي منجذباً حتماً للمضمون؛ لأن العنوان هو بريد المضمون، إذ يسحب معه فكر القارئ، ويشد معه انتباه المتلقي.

هذا الأمر وُفقت فيه الكاتبة السعودية سحر الشيمي، ولا عجب فهي خريجة الأحياء الدقيقة، فقد كانت دقيقة في اختيار عناوين لمقالاتها التي تربو عن المئة.

العنوان عند سحر الشيمي يتميز بمميزات قلما تتوافر لدى كتاب آخرين، ومنها:

الجناس بين كلمات العنوان.

قلة الكلمات ما بين كلمتين إلى ثلاث غالباً.

توافق العنوان مع المضمون.

•ونستطيع قياس ذلك من خلال نظرة سريعة لعناوين مقالاتها، وهذه بعضها على سبيل المثال:

نبادر ونغادر.

تقدر فلا تغدر.

فُتات الالتفات.

هشاشة الشاشة.

للوصول أصول.

نوح البوح.

غيْمُ الهِيم.

عابق عالق.

بريق وبل ريق.

هذه العناوين المتجانسة بلغت الحد الأقصى في المستوى الصوتي، فتكرار بعض الحروف المتقاربة المخرج أو المتحدة المخرج يعطي نغماً موسيقياً، وجرسا منغماً، يجعل القارئ ينسجم مع النص، وهذا يبدو جلياً في تكرار بعض الحروف، مثال لذلك: تكرار حرف الهاء في سطر واحد سبع مرات، في الجملة التالية:

قد ينتهي بالهوس الذي يؤدي إلى هاوية الانهيار للمنبهر، وهو ظاهر.

•تأنقت الأستاذة سحر الشيمي، وتألقت في اختيار العنوان، ولكن لم تتوقف عند ذلك، فكانت تقدم مضموناً رائعاً، ومحتوى مدهشاً؛ وتتميز مقالاتها بعدة مميزات تجعلها صالحة للبقاء وقابلة للاستمرارية، ومنها:

سلامة اللغة، ورصانة التراكيب، وجزالة العبارات، والاقتباس من القرآن الكريم ومن الحديث النبوي، وتوظيف النص المقتبس ليخدم الفكرة، ويدعم المحتوى، والتسلسل المنطقي للأحداث مع الالتزام بصرامة ضوابط فن المقال، من مقدمة وعرض وخاتمة.

ولها قدرة فائقة في براعة التخلص؛ إذ تنهي فكرة، وتسلمك لأخرى، دون هوة في المعنى، ولا فجوة في المضمون؛ إذ تتسلسل الأفكار رقراقة، وتنساب سلسة.

اقتباسات سحر القرآنية والحديثية مميزة؛ لأنها تنهل من معين دراستها العليا في المعهد العلمي العالي للقرآن والسنة، فكان التوظيف موفقًا، وكان النص المقتبس في مكانه تمامًا، ويخدم الغرض.

•أما من حيث موضوعات المقالات، فكلها موضوعات حياتية، تمس المجتمع، وتناقش قضاياه، فيحس القارئ أنها منه وله؛ فيطلع على تلك المقالات، ويدرك أن الكاتبة فعلاً بنت مجتمعها، لم تنفصل عنه، ولم تترفع عن همومه، بل خاطبت قضاياه.

لم يكن تناولها سطحيًا، وإنما كان تناولاً عميقًا، فيه تشخيص للمشكلة، وبيان أسبابها، والتنفير من نتائج تفشي

هذه الظاهرة أو تلك؛ لينفر المجتمع منها ثم تضع الحلول الملائمة.

تفتح سحر نافذة أمل للمغبونين والمحرومين، وتبين لهم أن الحياة قصيرة مهما طال ليل الألم، فصبحُ الأمل قريب؛ هنا تقول في مقالها الذي عنوانه: على قدر انكسارك يتسع قصرك : «ولكن.. رغم ذلك جمعوا فتات هذه الكسور، وصنعوا بها قصوراً في نهاية طريقهم»، ثم تقول: «وهذا لا ينحصر على الحياة الدنيا، وإنما أيضاً لقصر الآخرة. وعلى قدر الانكسار بين يدي الله في كل حاجاتك في دنياك وآخرتك، يتسع قصرك، وتحوز أمنياتك».

●مقدمات مقالاتها تذكرني بما يسمى في نقد الشعر ببراعة الاستهلال، فالكاتبة بارعة أيما براعة في استهلال وبدء مقدمات مقالاتها، تحسن التمهيد، وتجيد استدراج القارئ بهدوء إلى صلب الموضوع، فهي تتنوع في بداياتها، وربما تبدأ مقالها بمقولة مأثورة من التراث العربي، أو بعبارة لأحد الأدباء كما فعلت حينما بدأت مقالها المسمى «غيم الهيم» بعبارة للدكتور علي الطنطاوي: «ليس في الناس من لم يعرف الحب، وليس فيهم من عرف ما هو الحب».

●كما أجادت في مقدماتها، فقد أجادت ختام مقالاتها، وهنا

أذكر مقولة الكاتب الأمريكي آرنست همنحواي، حين قال: «إنني أجتهد في صياغة خاتمة رواياتي؛ لأنها آخر عهد بالقارئ، ولو كانت الخاتمة مميزة، فسيضطر القارئ لقراءة رواية أخرى لي».

•وقد تختم الأستاذة سحر بعض مقالاتها بدعاء حيناً، وبنصيحة أحياناً، نموذج للدعاء حينما ختمت مقالها المسمى: «عابق عالق»، دعت قائلة: «اللهم استعملنا ولا تستبدلنا، فلتبق عابقاً بذكراك، عالقاً بشذاها على مر الأزمان».

ولكن ما شدني هو أنها تختم أحياناً بسؤال بدون إجابة؛ حتى تترك للقارئ مجالاً، وهذا من النهايات المفتوحة التي تجعل الكاتب يضع القارئ شريكاً معه في الإبداع، ومن تلك النهايات التي وردت في خاتمة مقالها «انبهار فانهيار» قولها: «فهل لنا من حكمة؟!».

•كما تناولتْ في مقالاتها عدداً من الموضوعات المسكوت عنها؛ مثل الجفوة الأسرية بين الأزواج، وذلك في مقالها «ميزان بلا اتزان»، وشخَّصت المشكلة، وبيّنت خطورة انتشارها، وشرحت كيفية التعامل معها، ووضعت خارطة طريق للأزواج؛ حتى يستقيم وضع الأسرة، وحمّلت كلًّا من الزوج والزوجة مسؤوليته، ولم تمِل لجانب دون آخر، فلكل منهما دوره المهم،

وكان تناولها متسقًا مع مقدمة المقال، حينما تحدثت عن العدل الذي ذكرت آلته؛ وهي الميزان، وذلك في عنوان المقال.

•برعت الكاتبة في التلاعب بالاشتقاقات اللغوية للكلمات، واستغلت هذا الثراء الذي تتمتع به اللغة العربية خير استغلال، ومن يتابع العلاقات بين الاشتقاقات في اللغة العربية، وكيفية الوصول إلى المعاني الكامنة، يعرف كيف يجعل القارئ يشعر بمتعة الاستنتاج، حين يفهم النص بصورة أوضح وأعمق، فنجد اسم الفاعل في: هاوية، ظاهرة، متدرجة...، واسم المفعول في: محمود، ملهوف...، والمصادر في: انهيار، إصرار...

•أما دلاليًا فنجد الكاتبة برعت في استخدام الكلمات التي فيها انزياح دلالي عن معانيها إلى معانٍ أخرى؛ مما يعين القارئ على فهم مقصد الكاتبة، وتبيُّن خفايا النص، وتكريس اللغة الأدبية.

وهنا عبارة فيها عدد من الكلمات التي انزاح معانيها دلاليًا؛ لتحمل معاني أخرى إضافية: «فلنعتنِ بصفحات كتابنا، وسقي أزهارنا؛ لتثمر ويفوح شذاها».

•أما من حيث **المستوى البلاغي** فنجده يتداعى في مقالاتها من غير تكلف، مما يجعل بعض المقالات تتحول، كأنها

قصيدة شعرية؛ لما احتشدت بها من صور بلاغية بجميع أنواعها، ومن ذلك:

الجناس في عناوين المقالات؛ مما يعطي العنوان جرسًا موسيقيًّا، ومن أمثلته: أسير كسير، فُتات الالتفات، هشاشة الشاشة... وغيرها كثير في معظم العناوين، وفي غير العناوين مثل: الآلام والآمال...

الاستعارات التي تكثر في نصوصها، ومنها: بحر الهوى، ومرسى المودة...

الطباق: وهو الجمع بين الكلمة وضدها، ومن فوائد هذا التضاد توضيح المعنى، ويكثر الطباق في مقالات سحر، مما جعل المعاني واضحة بيِّنة، ومن ذلك: بسيط كبير / مادي أو معنوي / فرح وحزن...

السجع: وهو توافق أواخر الحروف في نهايات الكلمات، مما يعطي جرسًا موسيقيًا، ومنه: هل خير وإحسان، أم شر يتبعه سخط وحرمان؟ وأيضًا: ويفوح شذاها، ولا تطول يد النسيان ذكراها.

كما يكثر الترادف، وهذه سمة مهمة، ومن فوائدها تأكيد المعنى، وهي دلالة على ثراء المخزون اللغوي للكاتبة، ومن ذلك: المشاعر، الأحاسيس / الهوى، الحب / المأمول، المنشود...

يبدو التأثر بالقرآن واضحـاً في كتابات سحر، إذ تقفز بعض العبارات التي سحبتها من نص الآيات إلى نص المقالات، ومن ذلك قولها: هباء منثوراً، وفيه تأثر بقوله تعالى: (... فجعلناه هباء منثوراً) الفرقان: ٢٣.

ومنه أيضـاً قولها: أوجد الله الإنسان من العدم، ولم يكن شيئـاً مذكوراً، وفيه تأثر بقوله تعالى: (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئـاً مذكوراً) الإنسان ١.

وللكاتبة عبارات من رصانتها بلغت مبلغ الحكم، ومنها: الآلام تصنع الآمال، وكذلك: ومن حمل الثقال يصنع الرجال...

•أما من حيث **المستوى النحوي**؛ فالظواهر النحوية ليست حلية للنص، وإنما لها دور مهم في خلق المعاني، ويتعاضد المستوى النحوي مع المستويات الأخرى ضمن سياق النص لإبراز المعاني التي يريدها الكاتب؛ إذ تنوع الكاتبة في مقالاتها بين الجملة الاسمية والفعلية، ولكلتيهما ميزات في اللغة؛ فالاسمية تدل على الثبوت والاستمرار، والفعلية تدل على التجدد والحدوث.

فمن البدء بالاسمية قولها: للحب محطات ومواسم متدرجة يمر بها الإنسان، وكذلك: العدل اسم من أسماء الله وهو

الإنصاف... ومن الفعلية قولها: أوجد الله الإنسان من العدم، وكذلك: ولا تكن إمّعة في الانبهار بكل شيء... وهذا التنويع يدل على قدرة الكاتبة، كما يدل على حرصها على شد انتباه المتلقي.

وكذلك يكثر لديها تكرار الأفعال أو الأسماء، أو غيرها من الأبواب النحوية؛ مثل: التقديم والتأخير، والوصل والفصل، وبناء الجمل... وغير ذلك.

* * *

رقة الكلمة ودقة السبك وعمق المعنى

قراءة في قصيدة «إنها دول» للشاعر شادي الساحل

الأستاذ الشاعر إبراهيم جعفري، رقم صعب في عالم الشعر، أحسنَ حينما اختار معرفاً لاسمه: «شادي الساحل»، فهو يشدو لنا بجميل شعره، ويتحد مع الساحل والبحر في مفرداته، إنه شاعر كبير، يطوِّع الحرف، وتلين لديه قناة الكلمة، وتخضع أمامه العبارات، وتنقاد له الصور.

قصيدته «إنها دول» نص مدهش بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني، وتبدأ الدهشة من العنوان، وتستمر إلى نهايته، ولا تنقضي بعد القراءة، فتظل مسيطرة على القارئ إلى حين.

يبدأ النص بتقرير ما يراه الشاعر ملائماً لفكره ورأيه وقناعته؛ حيث يعمل على توصيف بعض المعاني من خلال رؤيته الخاصة، فيتحدث عن الشوق والهوى والحب، والمنى برؤيته هو...

ثم يخاطب «هنداً» ويستعيد ذكراها التي ما غابت عنه، حتى لو وُئِدت تلك البسمة، ثم يمزج بينه وبين الطبيعة في تماهٍ رائع؛ حيث يطربه الموج، ثم يسأله، ثم يبعث قصيدته بين خيوط

الشمس، والطيور تشدو وتحلق، ويظنها تحتفل رغم ما بها من الحزن والألم، ثم يقرر حقيقة أن الحياة تمضي كما أراد لها الله، والأيام تدول بين الناس، فيفتح لنا وله نافذة أمل بأن الغياب ليس دائماً؛ لأنها دول:

حياتنا تتهـــــــــادى في أعنّتها

فيا غياب: رويـــــــــداً إنها دولٌ.

تنوعت الأساليب في القصيدة بين الخبر والإنشاء، وذلك يعطي النص قدراً من التشويق، وكسر الرتابة، ودفع الملل.

وكان الخبر هو الأكثر استخداماً في النص، ومنه:

الشوق لهفة روحٍ والمنى أملٌ

والحب رعشة قلبٍ والهوى شُعَلُ.

فمن الإنشاء ورد الأمر في قوله:

دع الدموع لعينٍ لا تفارقها كأنها فرضتْ، والعين تمتثل.

ومزج ببراعته المعهودة بين الإنشاء والخبر في بيت واحد، وهذه قمة القدرة اللغوية والبراعة البلاغية التي يتمتع بها شاعرنا:

يا هل ترد ليَ الأيام بسمتها؟

غاب الصباح وحالتْ دونهُ السبلُ.

فالشطر الأول إنشاء، والثاني خبر.

وهنا أيضًا:

وكنت أسمع عزف الموج يطربني

فأين عزفك يا أمواج والجملُ؟

ولكنه بدل بينهما؛ فالشطر الأول خبر، والثاني إنشاء.

وأما من حيث المفردات؛ فالنص وظفها في إطارها السليم؛ مما جعلها قادرة على حمل المعنى، متسقة مع بقية المفردات، فأكثرَ الشاعر من ذكر الكلمات الدالة على الطبيعة، وهي أمر محبب في الشعر، ومنها:

البدر، الشمس، الغيمة، الطير، الموج...

فكانت جميع مفرداته موحية بمعانيها، وتحمل ظلالاً أخرى إضافية، يمكن للمتلقي استكناه ما يقصده الشاعر وأكثر.

ومن حيث العبارات والتراكيب والجمل: فقد نوع شاعرنا بين الجمل الاسمية والفعلية، ووضع كلاً منها في مكانها الصحيح، فالاسمية يستخدمها حيث أراد الثبوت والاستمرار:

ذكراكِ ما فتئتْ يا هند تُجهدني

يا بسمةً وُئدتْ والشوقُ يحتفلُ.

والفعلية وهي الغالبة؛ لأن نصه حي متحرك متمدد متجدد حيث قصد التجدد والحدوث، ومنها:

بعثتُ بين خيوط الشمس قافيتي

لعل طيف حروفي نحوها يصلُ.

القصيدة من بحر البسيط، وجاء هنا في حالته التامة بأربع تفعيلات في كل شطر، وهو بحر ثنائي التفعيلة، أو ما يسمى بالبحور الممزوجة:

مستفعلن فاعلن، أربع مرات موزعة على الشطرين.

أما الروي: فقد اختار شاعرنا حرف اللام المضمومة، واللام كما هو معروف من حروف الذلاقة، فمن خصائصها: قدرتها على الانطلاق من دون تعثر في تلفظها، وتتسم بمرونتها، وسهولة النطق بها.

وتزخر القصيدة بالصور الشعرية بكل أنواعها الجمالية؛ مما أكسب النص بُعداً جمالياً، يكتب له الخلود بسبب دهشة القارئ وإمتاعه، ومن ذلك:

الاستعارة في «حاكَ الغيابُ» في قوله:

حاكَ الغيابُ ثيابًا لي لألبسها

حتى الشموع لدور الشمس تنتحلُ!!

وكذلك في: «بسمةً وُئدتْ»، في قوله:

ذكراكِ ما فتئتْ يا هند تُجهدني

يا بسمةً وُئدتْ والشوقُ يحتفلُ.

وما أروع هذه الصورة:

وكل غيمة بُعدٍ سوف تمطرنا

وصلاً وكل عليلٍ منه يغتسلُ.

فالغيمة في زمن التنائي تمطرنا لا ماء وإنما «وصلاً»، يجمع المحب بحبيبه، ويشفي العليل؛ إذ يغتسل منه.

ويأتي الطباق: وهو التضاد الذي يجمع فيه الشاعر بين المعنى وضده؛ مما يبرز المعنى، ويزيده وضوحًا، وذلك في:

بُعد، وصل.

يبقى، رحلت... وغيرها كثير.

والمجاز المرسل في:

بعثتُ بين خيوط الشمس قافيتي

لعل طيف حروفي نحوها يصلُ.

حيث ذكر «قافيتي» وهي جزء، وأراد الكل، وهو قصيدته.

ويبرز الجناس: وهو إيراد كلمتين تتشابهان في الحروف، وتختلفان في المعنى، والجناس يعطي النص بُعداً موسيقيًا جميلاً بذلك الجرس الصوتي، ومن الجناس:

الطير، الطيور.

بسمة، بسمتها.

كما يكثر الترادف في النص؛ مما يؤكد المعنى، ومن ذلك ما ورد في البيت الأخير:

حياتنا تتهادى في أعنّتها

فيا غياب: رويدًا إنها دولٌ.

بين «تتهادى» وهي فعل، و«رويدك» وهي اسم فعل بمعنى تمهل، وهما بمعنى واحد.

بلاغة الشاعر فاقت الوصف؛ حيث برز التناص في قصيدته، وكان بارعًا فيه حد الإتقان؛ حيث استغل معنى لشاعر آخر، لكنه لم يقتبسه، ولم ينسخه، وإنما نسج على معناه؛ «فالمعاني مطروحة في الطريق» كما قال الجاحظ، ومن نماذج التناص في القصيدة، يقول شاعرنا:

تشدو الطيور ترانيمًا فتسعدنا

والطير مرتجفٌ قد صابه الوجلُ

يبكي ونحسب أن السعد أنطقه!

وهل يفسر ما يشدو به رجلُ!!

إذ يتناص مع أبي صخر الهذلي:

وإني لتعروني لذكراك هزّةٌ

كما انتفض العصفور بلّله القطْرُ.

ومع:

ولا تحسبوا رقصي بينكم طربًا

فالطيرُ يرقصُ مذبوحًا من الألمِ.

وهناك تناص ختم به قصيدته، حيث قال:

حياتنا تتهادى في أعنّتها

فيا غياب: رويـــــــدًا إنها دولٌ.

وذلك يشبه قول الشاعر:

دع المقادير تجري في أعنتها

ولا تبيتـــــــــن إلا خالي البال.

والتأثُّر بالقرآن يبدو جليًا في شعر شادي الساحل، ومنه في هذا النص قوله:

أغمضتُ عيني والأحلامُ تسكنُها

وارتدَّ طرفي والأحلامُ تنهملُ.

وهو تأثر بقوله تعالى: (... **قبل أن يرتد إليك طرفك**...) النمل: ٤٠.

وكذلك في العنوان «إنها دول»، عنوان القصيدة، وفيه تأثر بالغ بالقرآن الكريم، في قوله تعالى: (وتلك الأيام نداولها بين الناس) آل عمران ١٤٠.

وأما صوتياً: فقد برزت في النص موسيقاً داخلية، وذلك من تكرار حروف ومقارباتها في المخرج في بيت واحد، ونلحظ ذلك في تكرار حرف العين والغين في الأبيات الثلاثة الأخيرة:

دع الدموع لعينٍ لا تفارقها

كأنها فرضتْ والعين تمتثل

وكل غيمة بُعدٍ سوف تمطرنا

وصلاً وكل عليلٍ منه يغتسلُ

حياتنا تتهادى في أعنّتها

فيا غياب: رويداً إنها دولٌ.

وكذلك تكرار حرف السين:

يبكي ونحسب أن السعد أنطقه!

وهل يفسر ما يشدو به رجلُ؟!!

والشين في:

الشوق لهفة روحٍ والمنى أملٌ

والحب رعشة قلبٍ والهوى شُعَلُ.

لم يرتكب شاعرنا أية هنات لغوية، ولا موسيقية، حتى التي يعدها بعضهم خطأ، فتجيزها الضرورة الشعرية، بحجة ضبط الوزن؛ إذ يجوز هنا للشاعر ما لا يجوز لغيره، حين صرف

«ترانيم » وهي ممنوعة من الصرف؛ لأنها صيغة منتهى الجموع:

تشدو الطيـــــــور ترانيمًا فتسعدنا

والطيـر مرتجـفٌ قـد صابـه الوجـلُ.

وهكذا كنا في سياحة مع قصيدة سليمة المبنى، عميقة المعنى، محكمة السبك، رقيقة الألفاظ، بديعة الصور.

***

سعْيُ المحبين إلى مقام العاشقين

قراءة في نص «مقام العاشقين» للشاعر معبر النهاري:

ماذا يمكن للشاعر المسلم أن يكتب شعراً في موضوع أجلَّ وأسمى من الحديث عن سيد المرسلين، وخاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم؟

هنا تتقاذف الشاعر ناحيتان: ثراء الموضوع من جهة، وخطورته من جهة أخرى، فالحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ذو شجون، ولا حدَّ له، وكذلك قد يتخوف الشعراء من طرقه؛ لأن الإحاطة به تستحيل، ولأن شعراً في موضوع كهذا يتطلب الإلمام بكل أدوات الشعر.

هذا ما امتلكه شاعرنا الكبير معبر النهاري، فقد ارتقى هذا المرتقى وكان قادراً؛ لأنه يعرف عمَّن يتحدث، فكان ذا بضاعة غير مزجاة، تمكِّنه من سبر غور هذا الموضوع القيم.

لذا تجده يستحث قريحته، ويستنهض همة شعره؛ حتى يُعِدَّ الطاقة التي تمكِّنه من ذكر المصطفى صلى الله عليه وسلم:

يَا شِعْرُ رَوِنِقْ كُلَّ طُهْرٍ عَابِقٍ
أهْرِقْ دُمُوعَ الْقَلْبِ يَا مُضْنَاهُ.

برز مدح النبي صلى الله عليه وسلم منذ فجر البعثة، فتميز فيه حسان بن ثابت وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة وغيرهم رضي الله عنهم جميعاً.

وكان من حماية الله لنبيه أن أبطل مفعول مَن هجاه صلى الله عليه وسلم، فحفظ لنا التاريخ شعر مدحه، ولم يحفظ ما قاله ابن الزبعري وأمثاله في هجائه صلى الله عليه وسلم، فقد كفاه الله المستهزئين كما وعده.

نصطحب معنا بردة كعب بن زهير وبردة البوصيري وبردة شوقي؛ لنصل لرائعة معبر، فهي لا تقل عنهن جمالاً وألقاً ورصانة.

بدأ الشاعر قصيدته بالحديث عن مقام العاشقين الذي لا يشبهه شيء، وأن اللغة تقف عاجزة، والشفاه تظل حيرى، والبيان يبقى معطلاً عند الحديث عن هذا المقام السامي.

ثم يستلهم مادحي النبي صلى الله عليه وسلم: كعب بن زهير وحسان بن ثابت رضي الله عنهما، فهو يرى أن قصيدته في مدحه صلى الله عليه وسلم استعصت على الإتيان، وغلقت الأبواب، ولم تتح له النفاذ إليها.

ويقارن شاعرنا الحائر بين حاله وحال العشاق الذين أشعلوا فتيل حروفهم، وهو سامرٌ مع ضيائه صلى الله عليه وسلم.

ثم ينطلق لسرد بعض الأماكن التي شرفت بمروره صلى الله عليه وسلم من السلام، وغار حراء...

ثم هطل بوح القصيدة عليه بعد أن استعصت، كما قد هطل البوح المقدس عندما أفاض رُواه عليه الصلاة والسلام.

ثم يمزج الشاعر بين نفسه وبين أحداث عظيمة استلهمها من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وبرز كأنه عاصرها أو كأنها حدثت الآن، وهو يشهدها.

وتمضي القصيدة بنا عذبة الكلمة، رقيقة العبارة، عميقة المعنى، سلسة السرد، منسابة الأحداث.

وأما على المستوى البلاغي: فقد مزج شاعرنا بين الأسلوبين الخبري الذي كان هو الغالب والإنشائي الذي يأتي حينًا ويغيب، حسب الاحتياج؛ ليجذب المتلقي، ويمكِّنه من الانتباه، ويلفت نظره، ويمنحه طاقة التشويق.

فمن الإنشائي: الاستفهام في قوله:

مَاذَا يُقَالُ؟! وِذِي (حَلِيمَةُ) وَالشَّذَا صِنْوَانِ قَدْ رَبَّاهُ يَا رَبَّاهُ!

ومزج شاعرنا ببراعة بين نوع من الإنشاء الطلبي «الاستفهام» ونوع من الإنشاء غير الطلبي «التعجب» ببراعة فائقة في بيت واحد، حين قال:

مَا لِي بِبَابِ الْقَبْرِ أَصْمُتُ فَجْأَةً

للهِ هَذَا الْقَلْبُ مَا يَغْشَاهُ!

وكذلك الجناس، وهو من الحلى اللفظية؛ إذ يعطي

الكلمات جرساً موسيقياً، ويوهم القارئ بتكرار الكلمة، ولكنهُ يفاجئهُ فيما بعد باختلاف المعنى مع تشابه اللفظ، ومن ذلك في نص شاعرنا جاء به تاماً في قوله:

رَبَّاهُ يَا رَبَّاهُ..

رباه الأولى من التربية، ورباه الأخرى نداء للرب عز وجل، وحتى النداء يخرج لأغراض بلاغية، ومنها التعجب والاندهاش.

وكذلك جاء الجناس الناقص في: هداه، هواه...

وهناك العديد من الصور البلاغية؛ كالاستعارة التي احتشدت في النص فأعطته بهاء وعمقاً وخيالاً خصباً؛ ومنها:

قَدْ أَسْرَجَ الْعُشَّاقُ زَيْتَ حُرُوْفِهِمْ.

ومن الاستعارات أيضاً:

وَتَلَعْثَمَتْ شَفَةُ (الْكَمَنْجَةِ) دَهْشَةً.

وفي: أطْرَقَتْ نَجْوَاهُ.

وغيرها كثير...

كما تطل علينا الثقافة الدينية التي يتمتع بها الشاعر، والتي تتمثل في الاقتباس، ومن شواهده في النص:

قَدْ جَاءَ مِنْ أَقْصَى الْقَصِيْدَةِ حَامِلاً.

وهذا مقتبس من قوله تعالى:

(وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) يس: ٢٠.

وأيضـًا:

قَدْ غَلَّقَتْ رُوحُ الْقَصِيْدَةِ بَابَهَا.

من قوله تعالى: (وغلقت الأبواب...) يوسف: ٢٣.

وكذلك يقتبس من الحديث الشريف: (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة)، فيقول:

دَعْنِي أُمَسْجِدُ فِي ذُرَاهُ مَشَاعِرِي مَا بَيْنَ مِنْبَرِهِ إلى مَأْوَاهُ.

وكذلك الترادف، وغرضه تأكيد المعنى، ومنه: الضياء سناه، وكذلك أنادم أسامر...

والقصر في قوله: مَا كَانَ إِلَّا النُّورَ.

وغير ذلك..

وأما على المستوى الصوتي: فنلحظ تكرار بعض الحروف، فقد تكررت بعض الحروف في بيت واحد، وفي شطر واحد أحيانـًا؛ مما أعطى النص بُعداً موسيقيًا رائعـًا، يمتع الأذن، ومنه حرف الصاد وهو من حروف الصفير في:

قَدْ جَاءَ مِنْ أَقْصَى الْقَصِيْدَةِ حَامِلاً.

وبرز حرف صفير آخر مكرراً وهو حرف السين في:

فَطَفِقْتُ أَقْبسُ مِنْ ضِيَاءِ سُجُوْدِهِ

هَدْيًا أَدُسُّ الـــــرُّوحَ فِي ذِكْرَاهُ.

والطاء في:

أَنَا فِي رِحَابِ الطُّهْرِ مَحْضُ طُفُولَةٍ.

كما أورد كلمات تتضمن معنى صوتيًا؛ ومنها الكمنجة والنوتة....

وعلى المستوى النحوي: فقد تنوعت الجمل بين الاسمية والفعلية، ومعلوم أن الجملة الاسمية تدل على الثبوت والاستمرار، والفعلية تدل على الحدوث والتجدد.

فمن الاسمية قوله:

هَذَا (الْمَقَامُ) وَمَا لَهُ أَشْبَاهُ.

ومن الفعلية:

فهَمَى عَلَى وَجَعِ التَّخَاطُرِ خَافِقِي.

وقد كانت الكلمات والتراكيب مستخدمة في مكانها؛ بحيث تتفاعل نحويًا مع بقية المستويات.

ونوّع شاعرنا بين الأفعال بأزمانها الثلاثة؛ مما جعل الزمن عنده متحركًا حيًا، وليس جامداً ميتًا.

واتبع الشاعر أسلوب التقديم والتأخير، الذي جاء في مكانه، وحقق أغراضه، ومنها: الاهتمام والاختصاص، وتمكن بقدرة فائقة من ذلك، حسب مقتضيات الوزن ومتطلبات المعنى، ومنه:

لِيَذُوبَ نَبْضًا في مَقَامِ غِنَاهُ.

وأما على المستوى الصرفي: فقد استخدم الشاعر معظم المشتقات، ومن ذلك:

اسم التفضيل في «أقصى»، واسم الفاعل في «حاملاً»، والمصدر في «نبض»، واسم المفعول في «المقدس»...

كما تنوعت الأفعال ما بين المجرد مثل: سار، والمزيد، ومنه تهاطل، وكل زيادة في المبنى كانت تعطي زيادة في المعنى، لا يتوافر بدونها.

وتميز شاعرنا بقدر من الاشتقاقات والتصريفات في كلمات لم ترد كثيراً في اللغة؛ إذ اقتحم باقتدار تلك المجاهل اللغوية المعقدة، ومن ذلك قوله: «فُردِس» في:

مَـا كَانَ إِلَّا النُّــــــورَ فُـرْدِسَ آيـةً

مِـنْ كُلِّ طُهْـرٍ قَـــــــدْ بَـرَاهُ اللهُ.

وكررها بصيغة أخرى «فردست»، حين قال:

فَرْدَسْـتُ فِـي أَثَـرِ (الْبُـرَاقِ) جَوَارِحِـي

وَسَـكَبْتُ دَمْعِـي فِـي (بَقِيـعِ) حِمَـاهُ.

ويذكرني ذلك ببيت الشاعر الكبير البردوني حين قال:

مُـذ بدأنـا الشـوط جوهرنا الحصى

بالـدّمِ الغالـــــي وفردسنا الرّمـال.

ومنه أيضـًا اشتقاق الفعل تكوثر من اسم الكوثر في قوله:

بَـلْ كُنْـتُ قَلْـبَ (النَّبْـعِ) يَضْحَـكُ تَالِيًـا

سُـــــــوَرًا تُكَوْثِـرُ لِلصَّـدَى رَيَّـاهُ.

وأيضًا اشتقاق الفعل: أمسجد في قوله:

دَعْنِي أُمَسْجِدُ فِي ذُرَاهُ مَشَاعِرِي.

وأما على المستوى العروضي: فقد بدأ الشاعر قصيدته ببيت مصرع، والتصريع: هو أن يجانس الشاعر بين شطري البيت الواحد في مطلع القصيدة، أي: يجعل العروض مشبهًا للضرب وزنًا وقافية؛ كما في البيت الأول من قصيدة شاعرنا:

هَـذَا (الْمَقَـامُ) وَمَـا لَـهُ أَشْـبَاهُ

ثَمِـلَ (الْبَيَـاتُ) وَأَطْرَقَـتْ نَجْـوَاهُ.

انتهج شاعرنا في قافيته رويَّ الهاء المضمومة، وما قبلها ممدود، وهي قافية صعبة تذكِّرني بلزوميات المعري، ولا يستطيع كثير من الشعراء الالتزام بها خاصة في قصيدة طويلة كهذه.

فحرف الهاء، هو حرف مهموس رخْوٌ، مخرجه من أقصى الحلق، فأتى بالهاء الأصلية في نهايات بعض الأبيات مثل: الله... وبهاء الضمير في غيرها مثل: مأواه، شذاه...

نظم شاعرنا قصيدته على بحر الكامل التام بتفعيلاته الست، وجاءت بعضها سليمة، وبعضها فيها إضمار، وهو تسكين الثاني المتحرك، حيث إنَّ تفعيلة «متَفاعلن» تصبح «متْفاعلن»، وهو زحاف حَسَن.

وأما دلاليـاً: فقد تميزت مفردات القصيدة بالأبعاد الدلالية التي تعبر عن ثراء اللغة، وتبين قدرة الشاعر الفائقة على توسيع المعنى، فكثير من الألفاظ انزاحت لتعبر عن غير معناها المتعارف عليه؛ ومنها: أفاض، عكف، أدس...

وهناك ظاهرة تفوق فيها شاعرنا، وهي ذكر الأسماء في الشعر، فذلك أمر صعب جداً؛ لأنه يحتاج إلى مهارة فائقة، تجعل الشاعر قادراً على تذويب الاسم رغم جموده داخل النص الشعري، دون أن يكون هناك نشاز، وهذا ما تمكَّن منه شاعرنا، فأكثرَ من إيراد أسماء الناس والأماكن، دون أن يحس القارئ بنتوء في المعنى.

ومن أسماء الناس: آمنة، حليمة، كعب، حسان...

حينما تحدث عن مرضعته حليمة السعدية، والشرف الذي حظيت به:

مَاذَا يُقَالُ؟! وِذِي (حَلِيمَةُ) وَالشَّذَا

صِنْوَانِ قَدْ رَبَّاهُ يَا رَبَّاهُ!

ومنه أيضاً:

لَا (كَعْبَ) يُسْعِفُنِي بِبُرْدَةِ شِعْرِهِ

كَلَّا وَلَا (حَسَّانَ) فِي مَغْنَاهُ.

وهنا يشير للشاعر كعب بن زهير الذي جاء مادحاً ومعتذراً،

فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وألبسه بردته، فسميت قصيدته بالبردة، ومنها قوله:

نبئت أن رسـول الله أوعدني

والعفو عند رسـول الله مأمول.

ومن أسماء الأماكن: الحجاز، البقيع، السلام...

حين قال:

وَسَكَبْتُ دَمْعِي فِي (بَقِيعِ) حِمَاهُ.

اختار شاعرنا كثيراً من قصص سيرته صلى الله عليه وسلم؛ ومنها حادثة شق الصدر، حين قال:

شَقَّتْ مَلَائِكَـةُ الضِّيَاءِ فُؤَادَهُ

لِيَرَى الْوُجُودُ مِنَ السَّنَاءِ مَدَاهُ.

وقصة الجذع الذي حنَّ إليه:

مَاكُنْتُ إِلَّا (الْجِذْعَ) يَشْهَقُ جَوْفُهُ

مَا كُنْتُ إِلَّا (الطَّيْرَ) فِي شَكْوَاهُ.

وكذلك قصة الغيمة التي ظللته:

قَدْ سَارَ وَالْغَيْمَاتُ تَحْرُسُ خَطْوَهُ

وَفُؤَادُ (آمِنَـةَ) الْحَنَانِ رُوَاهُ.

وكان ذكر هذه الحوادث في القصيدة طبيعياً غير متكلف.

ثم تناول جانبًا مهمًا؛ وهو ضرورة التعرف على هدي النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو هدي شعاره التسامح والمحبة والحنان والعطف والرحمة:

لَمْ يَعْرِفِ النَّاسُ الْحَنَانَ وَلَا دَرَوْا
أَنَّ التَّسَامُحَ فِي الْحَيَاةِ هُدَاهُ.

وأخيراً وبعد كل هذا الثراء تجدني أعجب من تساؤل الشاعر الذي يرى بيانه معطلاً، وقد أتى بهده الخريدة الرائعة في مدحه صلى الله عليه وسلم:

مَاذَا أَقُولُ وَذَا الْبَيَانُ مُعَطَّلٌ وَالصَّمْتُ يَطْحَنُ مُهْجَتِي بِرَحَاهُ.

فكيف ببيانك إن لم يكن معطلاً؟!

أدعو الله أن يكون هذا النص شفيعًا لك يوم القيامة.

***

ورحل أيقونة الغناء السوداني عبد الكريم الكابلي

لم تكن مغنيًا فقط، تحفظ الكلمات، وتعرف الألحان، وتؤدي الأغنيات، وإنما كنت تبعثها (شلالاً رويًا)، ما كنت (ضنينًا بالوعد)، وإنما كنت كريمًا معطاء، (يهب الحياة غناؤه، يهب الفنون).

(ماذا يكون) يا كابلي؟ لو لم تكن أنت أيقونة الغناء السوداني، فمِن أي الجوانب يتناولك الدارسون؟!

فأنت بارع في العربية الفصحى، غُصتَ في الشعر العربي قديمه وحديثه، وأتيتنا متأبِّطًا تلك التي (نالت على يدها)، وقد نقشتَ أنت على معصم الغناء السوداني، ولكن جَلَدك لم يكن واهيًا.

وغصتَ في بحر الشعر العباسي، حينما شدوتَ مع ذلك الحمداني أبي فراس: (معللتي بالوصل والموت دونه).

اقتحمتَ غمار التراث السوداني البعيد، فنهلتَ منه مع بنونة بت المك في مرثيتها الخالدة، و(خيلها العركسن وما قال عدادن كم، فرتاق حافلن ملاي سروجن دم)، وسألت عن

علي (متين يا علي تكبر تشيل حملي)، وفسرت التراث، وكلماته الصعبة التي ما كنا نعرف نذللها لولاك، فما كنتُ لأعرف أن الوضيب هو الشعر، لولا سمعتك تفسره مع الرائعة الراحلة ليلى المغربي: (كشفن ليك أمات وضيب)، فلولاك ما عرفنا (الفافنوس)، ولا تعرفنا على قصة (خال فاطنة).

وعبرتَ الحدود، وتضوعت مع العقاد في (شذى زهر ولا زهر).

وجئتنا باللآلئ التي كانت أحلى من تلك (اللؤلؤة البضّة، التي صِيدت من شط البحرين)، وركبت الجندول وتجولت في البندقية، وسألت مع الملاح التائه: (أين من عينيَّ هاتيك المجال؟ يا عروس البحر يا حلم الخيال)، ولم تكن غريباً كما كان هو.

لم تكن مغنياً فقط، فأنت الشاعر الذي صاغ الكلمة، وأجاد النظم، وأنت الملحن الذي دوزن النغم الموسوق المنغم.

كنت فصيح النطق، سليم المخارج، غض العبارة، جميل الكلمة، عميق المعنى، رقيق الحديث.

يا أيقونة الغناء السوداني العظيم، (لو أنت نسيت أنا ما نسيت)، حينما استمعت إليك في أمسية أدبية في القاهرة، فكنتُ كالتلميذ الذي يأسره علم أستاذه، وكالمريد الذي يخشع لدى شيخه، وأنت تحلل التراث تحليل العالِم؛ فأنت نطاسي الكلمة، وجرَّاح الشعر، وطبيب الأغنية، سمعتك وأنت تحلل

كلمة «فولكلور» وترجعها لأصولها في اللغات الأخرى حرفاً حرفاً، وتعيدها للمعنى المستخدَم حالياً في اللغة العربية، ببراعة لا يملكها غيرك.

كنت مجموعة إنسان، وكنت أمة اجتمعت في شخص، فأنت (الزول السمح، الفات الكبار والقدرو)، فقد كانت (المرايا تكلمك)، وتناديك (زينة ولأنك عاجبها).

كنت قيثارة الوطن حينما شدوت للخرطوم، حينما (هبت في جنح الدجى وضمدت بالعزم هاتيك الجراح).

وكنت ذا كلمة طيبة، وأنت تشيد بطلابنا وطالباتنا حينما شدوا في كورالهم بقصيدتك: (شمس الصباح والصباح رباح، شمسك يا وطني).

وطفت بصوتك العذب في أنحاء السودان، حينما غردت لمروي التي (شفت فيها كل جميل). وطوفت بـ (كسلا التي أشرقت بها شمس وجدي، فهي في الحق جنة الإشراق).

وأبدعت متجلياً، حينما غنيت أمام جمال عبد الناصر: (مصر يا أخت بلادي يا شقيقة، يا رياضا عذبة النبع وريقة، يا حقيقة).

كلنا نحبك أستاذنا؛ لأن (حبك للناس خلانا نحبك تاني، وفيك الإحساس نساني أعيش أحزاني)، فأنت (الومضة التي عشنا على إشراقها).

كنت رصينـاً في اختياراتك، شـاملاً في انتقاءاتك، مبدعـاً في حرفك، بديعـاً في لحنك.

كنت أنيقـاً في مظهرك، رغم المرض الذي سعى لأن يجعلك شاحبـاً، لكنك قاومت وصمدت و«ركزت».

عندما جاءنا خبر وفاتك، (وتفشى الخبر وذاع وعم القرى والحضر)، بكتك عيون أبناء وطني وبناته، وأعينهم (غالها الدمع، فما أبصرت شيئـاً).

طبت حيـاً وميتـاً أستاذنا عبد الكريم الكابلي.

* * *

البرادايم

البارادايم: نظرية أنشأها الأمريكي توماس كون، وذكرها لأول مرة في كتابه «بنية الثورات العلمية»، وهي مجموع ما لدى الإنسان من خبرات ومعلومات ومكتسبات ومعتقدات وأنظمة، مهمتها رسم الحدود التي يسير داخلها الإنسان، وتحديد تصرفه في المواقف المختلفة.

وهو نموذج فكري، وإطار نظري، ونظام للتفكير عند الإنسان، وهو بمثابة العدسات التي يرى الإنسان من خلالها الحياة؛ لذا قيل عنه «نظارة العقل».

والبارادايم متحكم في التغيير في كل مراحله، وقد يجعل الإنسان يرى الأمور بغير حقيقتها، وهذا من أهم أسباب اختلاف البشر في نظرتهم للأشياء.

وهناك عدة قصص حياتية، تتحدث عن مفهوم البارادايم، وتوضحه أكثر، ومنها:

فُرضت بين دولتين ضرائب مرتفعة على أغلب البضائع ما عدا البرسيم، ففكر أحد الأشخاص بحمل برسيم كل يوم على دراجة نارية، ونقله للدولة الأخرى، وكان يمر من خلال نقطة

الجمارك دون أن يشك فيه أحد، واستمر هذا الأمر لمدة طويلة، وبعد التحقيق اكتشف أنه كان يهرب كل يوم دراجة نارية!

العبرة:

هذا الشخص خرج عن حدود البارادايم لرجال الجمارك، فلم يتمكنوا من كشفه.

قصة أخرى:

في محاضرة بمركز للمدمنين، قام طبيب بعرض تجربة عن أضرار الخمر، فأحضر معه حوضين زجاجيين: الأول فيه ماء، والثاني فيه خمر، ووضع دودة في الماء، فسبحت، ثم وضعها في الخمر فتحللت وذابت، حينها نظر الدكتور إلى المدمنين سائلًا: هل وصلت الرسالة؟ فكان الجواب: نعم، فسألهم الطبيب عن توضيح ذلك، فقالوا له: مَن في بطنه دود يشرب خمراً!

العبرة:

هذا الطبيب نظر إلى التجربة من خلال بارادايمه، ولم يحاول الخروج إلى البارادايم الخاص بالمدمنين.

قصة ثالثة:

كان أحد السائقين يقود سيارته بهدوء في أحد الطرق المزدوجة والمنحنية، وفجأة ظهرت أمامه سيارة في مساره،

واستطاع أن يتفاداها بصعوبة، لكن حينما حاذاه صاحب السيارة الذي دخل في مساره، فتح زجاج السيارة، وصرخ بأعلى صوته: حمار! غضب الرجل من هذه الكلمة، ووصف ذلك الرجل بأقبح الصفات، وبعد أن تجاوز المنحنى فوجئ بحمار ميت في الطريق، واصطدم به!

العبرة:

بارادايم هذا الشخص فسَّر كلمة «حمار» على أنها شتيمة، بينما كان الشخص الآخر يقصد بذلك تنبيه الرجل، ولكنه لم يستوعب هذه الصورة!

إذن من أراد مواكبة المتغيرات، والفهم الأعمق للآخرين ولنفسه، وتوسيع مساحة البرادايم عنده، فعليه التعرف على التالي:

قناعاتنا ليست كما كانت عليها، فهي متغيرة، فكلما أدركنا أكثر تغيرت قناعاتنا، وإدراكُنا ليس هو الحقيقة الثابتة؛ لأنها ستصطدم مع إدراك الآخر.

رؤية الإنسان غير شاملة، فهي تستهدف جزءاً صغيراً مما أمامنا؛ لأن لكل موقف زوايا نظر متعددة، وكلها صحيحة، مثال: لو جلس اثنان متقابلَيْن على طاولة، وكتب أحدهم رقم (٨)، فهو يراها (٨)، في حين أن الشخص المقابل له يراها (٧)، وكلاهما صواب؛ لأن كلاً منهما ينظر من زاويته الخاصة به؛

لذا حتى تفهم الآخرين، ضع نفسك مكانهم، وفكِّر بطريقتهم.

كما أن على الإنسان أن يوسع دائرة استيعاب الاختلاف حتى يحتوي الكثير من المواقف، وحتى ينظر إلى الأحداث من زاوية أوسع.

وليعلم أحدنا أن البرادايم الخاص بكل إنسان يتطلب مراجعة دائمة، وتغييراً بعد كل فترة؛ لأن الأحداث تتغير، والمعارف تتبدل، ومَن حولنا ليسوا هم كما كانوا، ولا أنت كما كنت.

الفهرست

مقدمة المؤلف ٧
تقديم ٨
العيون في اللغة والأدب وأنواعها وتأثيرها ١١
كبار السن والبيوت الخاوية ٢٤
ورحل المزمار ٢٦
أبلة كوثر ٢٩
ولأهل اليمن حقٌّ علينا ٣٤
ربع قرن في مملكة الخير ٤١
البنيان المهدوم ٥٠
ظاهرة المتعازب.. ما هي؟
وما أسباب وجودها؟ وأضرارها، وكيفية علاجها ٥٢
حينما يفيض النيل وتفيض الروح ٥٨
خطبة حنين.. دروس وعبر ٦١
عنك يا رسول الله ٨٦
عندما يفوح أريج الياسمين ٧١
رحلة لا تُنسى «صيف١٩٩٤م» ٣٧
سيدة الدراجة ٨١

سيمفونية الحزن والوفاء ٨٣
حينما ينكسر الجناح الآخر..... ٩٨
غفوة على ظهر حمار ١٠٢
قصة لغة ١٠٤
عن صديقي أحدثكم..... ١٠٦
الحل في الثورة الثقافية ١١١
كسلا من جنة الإشراق إلى حفرة الإحراق..... ١١٧
رحلتي من الخرطوم إلى القاهرة ١٢٢
من الخرطوم إلى القاهر..... ١٢٨
من الخرطوم إلى القاهرة..... ١٣٣
وجاءت مريم ١٤٠
ذلك الرجل الأُمَّة ١٤٢
ورحل حمام الوادي ١٤٧
تجاويف التجاويف..... ١٥٠
دقة العنوان وجودة المضمون: ٣٥١
رقة الكلمة ودقة السبك وعمق المعنى ١٦٣
سعْيُ المحبين إلى مقام العاشقين ١٧٢
ورحل أيقونة الغناء السوداني عبد الكريم الكابلي ١٨٣
البرادايم ١٨٧
الفهرست..... ١٩١